العتبة العباسية المقدسة
موسسة الخانات المقدسة
١٦٥٦

رواية

أَزْهَارُ السَّنط

ماهر مهران

الرواية الفائزة بـ (جائزة الرواية العربية/ الدورة الأولى)



موسسة الخانات المقدسة
الإشراف العلمي
اللجنة العلمية في موسسة الخانات المقدسة
الإصدار ٤١

أَزْهَارُ السّنط

رواية



رواية

أَزْهَارُ السّنط

ماهر مهران بخيت أبو زيد

بطاقة الفهرسة

PJ7908.Z39 A94 2025

أبو زيد، ماهر مهران بخيت ١٩٦٨- - مؤلف.

رواية أزهار السنط/ تاليف: ماهر مهران بخيت أبو زيد.

- الطبعة الاولى. - النجف، العراق: العتبة الحسينيّة المقدّسة، مؤسسة الخلق العظيم، ٢٠٢٥/ ١٤٤٧ للهجرة.

١٢٤ صفحة؛ ٢٤ سم. - (العتبة الحسينية المقدسة؛ ١٦٥٦)، (مؤسسة الخلق العظيم؛).

١. القصص العربية - القرن ٢١ - مصر. ٢. القصص الأخلاقية. أ. العنوان.

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة.

ISBN: 978-9922-735-88-7

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

(٣٤٩٢) لسنة (٢٠٢٥)

هوية الكتاب

أزهار السنط

المؤلف: ماهر مهران بخيت أبو زيد.

الصنف: رواية

الطبعة: الأولى

سنة الطبع: ٢٠٢٥م

دار الطبع: مطبعة دار الوارث.

إشراف ومراجعة: اللجنة العلمية في مؤسسة الخلق العظيم.

الناشر: العتبة الحسينية المقدسة .

تقويم النص و التدقيق اللغوي . مؤسسة الخلق العظيم .

المخرج الطباعي: السيد مرتضى حسين الهاشمي.

تصميم الغلاف: مرتضى ماجد الدالي .

اللجنة العلمية

الشيخ صباح الساعدي

د. السيد زيد البطاط

د. حاتم البخاتي

الشيخ غانم الجبوري





جميع الحقوق محفوظة
للعتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م



إصدار

مؤسسة الخلق العظيم

كلمة المؤسسة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلواته الزاكيات على نبيه الكريم الموصوف بالخلق العظيم، محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أما بعد، فبما أنّ للأدب بالغ الأثر في نفوس مخاطبيه، وأن عشاقه الذين انبهروا بهذا اللون من الكتابة هم من مختلف الفئات والأعمار والمستويات، فقد رأت مؤسسة الخلق العظيم للدراسات الأخلاقية ـ وفي صدد اتباع السبل المؤثرة لنشر القيم الأخلاقية وترسيخها في المجتمع العربي ـ أن من اللازم توظيف هذا النمط المؤثر من الكتابة، فتبلور عن ذلك مشروع الأدب الأخلاقي والذي يعمل في المجالين التاليين:

الأول: الشعر؛ حيث عمدت المؤسسة إلى توظيف الأشعار الهادفة ذات المضامين الأخلاقيّة المؤثرة، وذلك عن طريقين؛ هما:

أ) إعداد موسوعة ألفبائيّة للأشعار الأخلاقيّة، حيث تبوّب الأشعار ـ وفق العناوين الأخلاقيّة المتضمنة فيها ـ في ترتيب ألفبائي، لتكون رافداً مهمّاً للباحثين والخطباء وهواة الشعر والأدب.

ب) كتابة الشعر الأخلاقي في الأحداث المعاصرة؛ فتتم دعوة الشعراء والأدباء واستكتابهم لتسليط الضوء على الفضائل الخُلقيّة والظواهر الاجتماعيّة الإيجابيّة بغية دعمها وترويجها، ونقد الظواهر الاجتماعيّة والأخلاقية السلبيّة ومواجهتها.

الثاني: الرواية السردية؛ ويتمّ العمل فيه على تأليف روايات ذات مضامين أخلاقية يكون المستهدف فيها فئات الأطفال والناشئة والشباب، من خلال صياغة المفاهيم الأخلاقيّة، أو كتابة القصص الأخلاقية المأثورة عن المعصومين عليهم السلام والعلماء والعظماء، بأسلوب روائي معاصر متناسب مع الفئات المستهدفة.

وفي ضوء ذلك فقد أُطلقت مسابقة الرواية العربية والتي تهدف إلى دعم المشهد الثقافي والأدبي في الساحة العربية، ليتحقق من خلال ذلك نشر القيم والمبادئ الأخلاقية النبيلة، وقد لاقت إقبالا واسعا من قبل الأدباء المحترمين في العراق والوطن العربي، وشارك في نسختها الأولى من مختلف البلدان العربية، إذ استقبلت المؤسسة مشاركات واسعة من خمسة عشر بلد عربي، وبالتسلسل التالي:

١. مصر العربية: ١٠٦ مائة وستة رواية.
٢. العراق: ٤٥ خمسة وأربعون رواية.
٣. الجزائر: ٤٥ خمسة وأربعون رواية.
٤. المغرب العربي: ٢٨ ثمانية وعشرون رواية.
٥. سوريا: ١٣ ثلاثة عشر رواية.
٦. تونس: ١٠ عشرة روايات.
٧. اليمن: ٩ تسع روايات.
٨. لبنان: ٥ خمس روايات
٩. السودان: ٣ ثلاث روايات.

١٠. البحرين: ٣ ثلاث روايات.

١١. ليبيا: ٢ روايتان.

١٢. الأردن: ٢ روايتان.

١٣. الكويت: ١ رواية واحدة.

١٤. فلسطين: ١ رواية واحدة

١٥. الصومال: ١ رواية واحدة.

وبما أن المسابقة كانت موزعة على فئتين من الكتّاب: كبار الكتاب، وفئة الشباب، فقد كان النصيب الأوفر للروايات الواردة من قبل الفئة الأولى؛ إذ بلغ عددها مائة وستة وثمانين رواية، فيما بلغ عدد الروايات الواردة من قبل فئة الشباب ثمانية وثمانين رواية.

ونتيجة للآليات المتبعة في وضع الضوابط والشروط المقررة من قبل اللجان القائمة على المسابقة، فقد تم اختيار الروايات التي حظيت بالفوز من بين الروايات المنافسة والكثيرة في ضوء المعايير الأدبية والفنية وغيرها من الشروط التي أُعلن عنها في الجائزة.

وقد حازت الرواية الماثلة بين يدي القارئ الكريم المرتبة الثالثة من فئة كبار الكتاب، والتي سلط كاتبها الضوء فيها على موضوعة غاية في الأهمية، ألا وهي قصة طفلة صغيرة نشأت وترعرعت في مجتمع لا يعير أهمية للمرأة ولا يؤمن بإمكانية وصولها إلى مراتب رفيعة في مجال الحياة، إلا أن هذه البنت أثبتت للجميع أن المرأة قادرة على مواجهة المصاعب والعقبات لتصل إلى الأهداف المنشودة ضمن النطاق المسموح به في الشريعة..

ونحن بدورنا إذ نثمن هذا المجهود المبارك الذي قدمه الأستاذ ماهر مهران بخيت أبو زيد المحترم ندعو الله العلي القدير أن يوفقه للمزيد من العلم والعمل الصالح.

كما نتقدم بالشكر الجزيل للإخوة الأفاضل في اللجان العاملة على هذه المسابقة القيمة، وأخص بالذكر: الروائي السيد نعيم آل مسافر المحترم، والأخ الدكتور علي كاظم داوود المحترم، والأخ الدكتور عباس فاضل عبد الله المحترم، والأخ الدكتور نعيم خماس جبر المحترم، والأخ الدكتور مهدي عيسى البطاط المحترم، والأخ الدكتور ناصر الجابري المحترم.

وكذلك الإخوة في اللجان التنظيمية: الأستاذ حيدر عبد الهادي حسن المحترم، والأستاذ السيد مقداد جاسم الغرابي المحترم، والأستاذ محمد ماجد هاشم المحترم، والأستاذ السيد محمد علي أمجد حميد المحترم، والأستاذ محمد حسين علي محمد رضا المحترم، والأستاذ منتظر زيد كامل المحترم، والأستاذ أمير أبو الزين المحترم.

وفي الختام أعرب عن عرفاني وامتناني لسماحة المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة العلامة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (دامت بركاته) على رعايته الأبوية للمؤسسة ومشاريعها ودعمه المتواصل لهذا المشروع وبقية المشاريع الأخرى فيها، وكذلك جناب السيد الأمين العام للعتبة الحسينية المقدسة جناب الحاج حسن رشيد جواد العبايجي (دامت توفيقاته) على حرصه وحضوره الفاعل في هذا النشاط المبارك، كما أتقدم بالشكر للإخوة الذين ساهموا في الإشراف والمراجعة الفكرية والتدقيق اللغوي، وأخص

بالذكر: الدكتور السيد حاتم البخاتي، والدكتور السيد زيد البطاط، وجناب الشيخ غانم الجبوري، وجناب السيد قتاد الحسيني، سائلا المولى عز وجل أن ينفع بهذا العمل الذي قدموه وأن يأخذ بأيديهم لما فيه خير وصلاح.

والحمد لله رب العالمين.

مدير المؤسسة

الشيخ صباح عباس حسن

٢٨ ذو القعدة ١٤٤٦

٢٦/ ٥/ ٢٠٢٥م

أوشك سبتمبر بحرارته التي تسلق البيض أن ينتهي، والحمد لله أن انتهى أبي من وقيّع القيضي والشامي، وانتهيت وإخوتي من تقشير قناديل الذّرة الشامية ومن قطع قناديل القيضي التي كانت هذا العام أكبر من رأس الكلب، لقد حمصّت الشمس جلدي وصرت سمراء مثل قطعة فحمٍ أو أشد واهترأت أناملي وصارت مثل ممحاةٍ باليةٍ، لم أكترث بشدة اسمرار بشرتي ولا بسخرية زملائي وزميلاتي منّي في المدرسة، فهم يعرفون أنني دائماً ما أمسك بذيل جلباب أبي وأذهب معه إلى الحقل.

أتبع خطاه كلما ذهب، أرمي البذور في النُّقر التي صنعها بفأسه، وأنقّي الحشائش التي لا تملُّ من الطلوع، وأسقي الزرع، وأحش البرسيم، وأحصد القمح، وأركب الحمارة فوق شيلة الحشيش الكبيرة كالأولاد الشجعان، وأعزق بالفأس إن استدعى الأمر، ثم أعود إلى بيتنا تحت ظلال جبل قاوات الشاهق وأنا أمسك بذيل جلباب أبي، ولا أكترث بسخرية البعض مني بسبب كوني بنتاً دخلت في طور البلوغ وتعمل في الحقل مع أبيها وإخوتها.

لقد ذهبت إلى المدرسة الثانوية وأنا سعيدة بالقميص الأبيض والمريلة الزرقاء اللذين اشتراهما لي أبي عندما فرح بمجموعي الكبير الذي حصلت عليه في الشهادة الإعدادية، فأنا والحمد لله لم أنقص عن الدرجة النهائية سوى درجتين فقط، صار أبي يتحدث عنّي مفتخراً بي أمام الناس، كنت أدرك أنه يعوّض الخيبة التي سبّبها له أخي عبد

الباسط الذي حصل على دبلوم صنايع من مدرسة أسيوط الثانوية الصناعية، ثم سافر إلى القاهرة وعمل هناك في كوفي شوب في منطقة راقية، وظلّ يبعثر كل ما يكسبه من مالٍ في استهتارٍ؛ لهذا لقّبه أهل قريتنا بالخربان، وسبَّب هذا لنا الاستياء، لهذا فرح أبي بي كثيراً عندما حصلت على هذا المجموع وظل يتباهى بي، ورغم أن البعض هنا كان يقلل من شأن تعليم البنات ويشبّهه بفلاحٍ يزرع في غير أرضه ولن يكون حصادها له، إلا أن أبي الحبيب كان يتجاهل كل هؤلاء ويستمر في إعلان فرحه بي، فكان يأخذني إلى مدينة البداري التي تقع شمال قريتي بعشرين كيلومتراً وهناك كان يطعمني الطعمية الساخنة، ويسقيني عصير القصب المخلوط ببعض الليمون، ويفرّجني على السيارات والملابس الملونة والنسوة الأنيقات، وكان يمرّ بي أمام عيادات الأطباء ويذكر لي اسم كل طبيب وتخصصه وذكرياته معه، إنه يعرفهم جميعاً، خاصة أطباء المسالك البولية والعيون، ثم ينصحني بالاجتهاد في المذاكرة؛ كي أكون طبيبة وتكون لي عيادة مثلهم، أعده بذلك، فيفرح بي، ويشتري لي القميص الأبيض والمريلة الزرقاء، أقول في سرّي: إنني أشتهي هذا الحذاء الجلدي ذا الكعب العالي، وأوشك أطلب منه أن يشتريه لي، لكن خوفي من أن تتشاجر معه زوجته بسببي جعلني أكبح رغبتي وأكتفي بالفرح بالقميص والمريلة أما الحذاء، فلا بأس؛ فأنا لدي حذاءٌ بلاستيكي يمكنه أن يؤدّي الغرض ويمكنني أن أحجب قِدَمَه واهتراءه بالمريلة الطويلة.

استيقظت مبكراً كعادتي، ولبست القميص الأبيض والمريلة الزرقاء والحذاء البلاستيكي الرخيص، وذهبت عبر طرق ضيقة إلى المدرسة، قابلت زميلاتي في المدرسة الإعدادية اللاتي أهَّلهن مجموعهن في الشهادة الإعدادية للالتحاق بالمدرسة الثانوية، قابلت (مَيَّ) تلك البنت التي كانت أمها ممرضة اللجنة في امتحان الشهادة الإعدادية، وكانت تقدّم لها الامتحان محلولاً بالحرف الواحد وليس عليها سوى أن تنقله نقلاً، وقابلت (سوسنَ) التي كان أبوها حارس اللجنة، وكان يأخذ منها ورقة الإجابة، ويأمرني في خشونة مخيفةٍ بحلها وقابلت (غادة) التي استاءت من الغش وظلت تصرخ طيلة اللجنة، لكن الغش لم يتوقف والسخرية من غادة استمرت حتى انتهينا من الامتحانات، كنّا قد كبرنا، وعيون الأولاد تلاحقنا. حكت لي مي عن (حمكشة) الأول على مدرسة الأولاد بالغش؛ حيث إن أخاه كان يدخل اللجنة ويكتب له بنفسه، وحكت لي أيضاً عن أحمد المشهور بالتدخين والذي كان أبوه يقف أمام اللجنة ممسكاً بعلب السجائر المستوردة والمال وأشياء يُقال: إنها مخالفة للقانون، وكان يعطي كل ملاحظ من ملاحظي اللجنة ما يريد، فمثلاً من يُرِد المال يعطه المال! ومن يرد أي ممنوعٍ يمنحه إياه! وهكذا حتى نجح أحمد، وحصل على المركز الثاني على مدرسة الأولاد، ودخل المدرسة الثانوية، وأعلن أمام الجميع منذ اللحظة الأولى أنه سيكون ضابط شرطة، وفسّر ذلك بأن أباه لديه ملايين الجنيهات حصل عليها بعد تقاعده عن العمل في شركة أسمنت ساويرس، وأن عمه لواء شرطة له نفوذ كبير وسلطة

واسعة، ثم ختم كلامه قائلاً في افتخارٍ: إن من يملك المال والسلطة يفعل ما يشاء.

أعجبتني المدرسة ومعامل العلوم والمكتبة التي لم أرَ مثلها من قبل، وأحببت المدرسة الثانوية رغم أنني كرهت فيها الأستاذ (حسُّوباً) مدرس الأحياء ببشرته السوداء وملامحه الغاضبة، وهو يمسك الميكروفون كل صباح ويشتمنا بألفاظ تجعلنا نحن البنات نبتل عرقاً وخجلاً، وكرهت النظر من النوافذ إلى اليمين حيث المقابر ورائحة عظام الموتى والصراخ والأعيرة النارية التي تنطلق كل يومٍ بسبب الثأر، وكرهت نظرة غالبية المعلمين والطلاب نحو حذائي البلاستيكي المقطّع وسخريتهم منه ومنّي، ففكرت أن أترك المدرسة وأبتعد عن كلماتهم الجارحة لكن أين أذهب وكل الطرق مقفولة في وجهي؟ وماذا أقول لأبي بعد أن تباهى بي وبتفوقي أمام الناس؟ أقول لنفسي: يجب أن أكون قوية وصبورة كي أحقق حلمي، يجب ألا أكترث بسخرية الآخرين حتى أتمكّن من تحقيق حلمي وساعتها أشتري الأحذية الجلدية الأنيقة والملابس الملونة والحلي والسيارات، كنت بيني وبين نفسي أردّد: الفائز من يضحك في النهاية، والخاسر من يضعف ويستسلم؛ لهذا لن تحبطني سخريتهم من حذائي البلاستيكي، ولن أتنازل عن تحقيق حلمي.

شيئاً فشيئاً بدأ الضيق يتسلل إلى نفسي، وبدأت أفقد فرحي بالمدرسة، فالأستاذ حسُّوب مدرس الأحياء استمر في قول ألفاظه الخارجة، تبرّمت غالبية البنات منه ومن أسلوبه غير اللائق، وشكونه

لآبائهن، لكنه استمر في جنونه وألفاظه الخارجة وعصبيته الزائدة، وفوق كل هذا ظلّ يكرّر حكاية رجل معه طفل صغير يريد له زمّارة، وكان جاره تاجراً يذهب كل يوم ثلاثاء إلى السوق، وكان الرجل يقابله قبل ذهابه إلى السوق ويقول له: هات للواد زمّارة معك من السوق، يذهب التاجر إلى السوق ويعود، لكنه لا يحضر الزمّارة، يسأله الرجل عن الزمارة؟ ويقول: إن السوق ليس به ما يريد، وهكذا كل صبيحة ثلاثاء يقابله ويطلب منه إحضار زمّارة لولده ويذهب التاجر إلى السوق ثم يعود، لكنه لا يحضر الزمّارة، وفي المرة الأخيرة استيقظ الرجل المسكين مبكراً، وقابله فور خروجه من بوابته وطلب منه إحضار زمّارة لولده وأعطاه هذه المرة جنيهاً، أخذ الرجل الجنية ثم ابتسم، وقال لوالد الطفل: بهذا الشكل ولدك سوف يزمّر، وقبل الظهر عاد التاجر ومعه زمّارة شكلها جميل، والأصوات الخارجة منها آسرة، قدّمها للرجل وهو يقول له: إنه تحت أمره، والطفل ينفخ في الزمارة سعيداً.

لقد كان الأستاذ حسُّوب يقصد أن أية خدمة تقدّم لا بد من دفع ثمنها، وإن الطلاب والطالبات عليهم أن يذهبوا إليه في البيت كي يأخذوا درساً خصوصياً، لقد نفرنا منه ونفرنا من الأستاذ حسام علم اللغة العربية الذي لم تكفه الأموال التي حصل عليها من بعثة السودان، لقد نادى عليَّ الأستاذُ حسام ذات فسحة وكلفني بتكوين مجموعة من الطالبات تأخذ معه درساً خصوصياً، قلت له: إنني أذاكرُ في البيت وأعتمدُ على نفسي، وليس لدي مالٌ آخذ به درساً؛ فغضب مني، وصار

يتجاهلني أثناء الشرح، وصار يتعمّد إحراجي أمام زملائي، ويسألني أسئلة تعجيزية، ويحرمني من درجات الشفوي، كنت أستنكر بيني وبين نفسي ابتزازه للطلبة والطالبات بهذا الشكل، وهو لا يعول سوى بنتٍ رآها بعد سنين من العذاب بعد أن فشلت بطن زوجته مدرسة الكمبيوتر في حملها وحملتها أنبوبةٌ زجاجيةٌ! أمّا عمي مدير المدرسة، فقد صار يطيق العمى ولا يطيق رؤيتي في المدرسة، وكان كلما رآني يصيح فيَّ غاضباً، وكأنه رأى عفريتاً: غوري، غوري!

أعرف أنه يخجل من فقري ومن حذائي البلاستيكي، فكنت أحرص على الابتعاد عنه، لكنه استدعاني ذات مرّةٍ وحدّثني عن بنته أمنية زميلتي وعن حساسية الصدر التي تعاني منها، ثم أمرني بالقيام بكنس وتنظيف الفصل بدلاً منها وهو يردد: الأقارب لا بد أن يتحمّلوا بعضاً!

كنت في يومي ويومها المحددين أستيقظ مبكراً وأذهب إلى الفصل، أحمل المكنسة وأنظف تحت الأدراج، كنت أجد بقايا طعام في غالبية أدراج البنات في مؤخرة الفصل، وأجد أيضاً خطابات غرامية من الأولاد للبنات رائحتها عطرة وخطها منمّق، وتحوي قلوباً ملونة وأسهماً جميلة، كنت لا أقرأها وأمزّقها بسرعة ولا أتحدث عنها حتى أمام غادة صديقتي!

أما أدراج الأولاد في المقدمة، فكنت أجد أعقاب سجائر مستوردة ومحلية وأغلفة حبوب قالت لي غادة ذات مرة: إنها حبوب مخدّرة يصل

سعر الواحدة منها خمسين جنيهاً، كنت أستنكر أن يأخذ الطالب حبة كهذه تدمّر صحته ويفوق ثمنها ثمن كتابين خارجيين يظل الطالب ينهل من علمها حولاً كاملاً!

لقد ساء فصلنا وامتلأ بالضوضاء والمشاكل؛ الأولاد يهربون من المدرسين ومن الحصص، وينطون من فوق السور، ويتعاركون مع بعضهم ومع بعض المعلمين، ودرجاتهم سيئة، وزادت حالات استدعاء أولياء أمورهم، وزادت قرارات فصلهم، وللأسف هم يظلون يصرخون ويضربون ويتعمدون إظهار نقاط قوتهم خاصة الجسمانية أمامنا، ومعظم الحصص تظل خالية لا معلمين لها، فشكت غادة للمدير من ذلك، فقال لها في غضبٍ: إن الوزارة تعرف العجز الصارخ في المدرسين ولا تحل المشكلة، وأمرها بألا تذكر ذلك مرة أخرى، قالت له غادة وهي تحبس دموعها: إن مدرس الكيمياء لا يشرح، ويطلب منهم أن يأخذوا درساً خصوصياً، ابتسم المدير وقال وهو يبتعد: لابأس، هوَّ أولى من الغريب!

كنت أبتعد عن الضوضاء والأولاد وعمي المدير والأستاذ حسام والأستاذ حسُّوب، وأجلس في الركن، بعيداً عن الضوضاء، أستعير أحد الكتب الخارجية من غادة، أنقض عليه، أفهم ما تعسّر عليّ فهمه، أجيب عن التدريبات، أحلّ الامتحانات، أتناقش مع غادة ثم أعود إلى كتاب الوزارة في البيت!

أضع كتبي فوق منضدتي القديمة الهشة، تعطيني زوجة أبي كسرة خبز وقطعة جبنة قديمة أو كسرة خبز ألحس بها ما تبقّى من غداء إخوتي

الذكور الذي غالباً ما يكون فلفلاً مسلوقاً أو مقلياً مع بعض الباذنجان المقلي، أو المسلوق مع بعض الثوم، أنتحي جانباً، وأنهمك في مذاكرتي ومساعدة إخوتي فيما صعب عليهم، حتى تصطادني زوجة أبي وتأمرني بالعجين، أو الخبيز، أو الغسيل، أو الكنس، أو تنقية أوراق الملوخية الخضراء، أو تحميص سنابل القمح، وصنع الفريك، لقد امتلكت بفضل قسوتها هذه بعض مهارات المرأة الصعيدية في سنٍّ صغيرٍ، لكن أبي عندما رآها تستهلك وقتي في مثل هذه الأشياء تحدّث معها عن فرحة الناس بي وتفوقي في الشهادة الإعدادية، ومساعدتي لإخوتي، وتشجيعي لهم، وتقليدهم لي إذا ما تفوقت في الشهادة الثانوية، ودخلت كلية الطب، ثم أمرها بأن تكفَّ عن استهلاك وقتي بهذا الشكل، وبأن تقوم هي بهذه الأشياء وتتركني لمذاكرة دروسي، وافقت زوجة أبي على كلامه شريطة أن أشرح لإخوتي ما يصعب عليهم.

تركتني وانطلقتُ، أقرأ وأفهم وأحفظ حتى صرت أفضل طالبةٍ في فصل المنحرفين على حد كلام الأستاذ حسُّوب الذي أمرنا بالوقوف في طابور الصباح تحت العلم ذات يومٍ، وقال في غضب وهو يلوّح بعصا غليظة: إن فصلكم فصل المنحرفين؛ لأنكم بلغتم ذروة الانحلال؛ حيث إن أغلبكم ضعاف دراسياً ورسبتم في معظم المواد، وتم فصلكم أكثر من مرة، وزوّرتم توقيعات أولياء أموركم، وأتيتم أولياء أمورٍ مزيفين، وهربتم من المدرسة، وتشاجرتم مع بعضكم، حتى كادت القرية كلها بسبب طيشكم تتحوّل ساحة حرب!

كرهت هذا الفصل إلا غادة، وظللت أبحث عن المعلومة مثل

فقير يبحث في بطن الجبل عن عرق ذهب، حتى دخلت الفصلَ ذات صباح من صباحات إكتوبر الجميلة الأستاذةُ بدرية مبتسمة وأنيقة، فسكت الأولاد احتراماً لأناقتها، قالت: إنها ستعطينا لغة إنجليزية، فرحت لأننا منذ بداية العام لم نأخذ أي حصة إنجليزي بسبب العجز في المدرسين، وهجرة بعضهم إلى دول الخليج، ثم قالت لنا: إنها ستكون معلمتنا ورائدة فصلنا، تفحّصها أحمد واصطنع ملامح الولد الرومانسي وحاول عرفات باستظرافه أن يلفت نظرها فأوقفته بكل ثقة وهدوء عند حده وسألها حمكشة بخفة دمه: هل أنتِ متزوّجةٌ يا ميس؟ فقالت له في ابتسام: هل تبحث عن عروس يا حبيبي؟ ضحك الجميع على حمكشة، وتأكّدنا أننا أمام معلمة فريدة من نوعها، فسكتنا واستمعنا لها في شغفٍ شديد.

بابتسامة صادقة وملامح جذّابة وصوت شجي راجعت لنا القواعد التي درسناها في السنوات السابقة، كانت هذه القواعد بالنسبة لنا أشبه بالطلاسم، شرحتها بأسلوب سهل، فانجذب الفصل نحوها، حاول عرفات الاستظراف وإحداث ضوضاء في الفصل كعادته، لكن أحمد وحمكشة نهراه عن فعل ذلك، فجلس وهو يحاول إخفاء خجله، ثم حاول مرة أخرى في يوم آخر فنظرت إليه نظرة مهدّدة؛ فاعتذر ووعدها بألا يكرر هذا مرة أخرى، أصغى الفصل كله إليها إصغاء شديداً، وكان المدير وبعض المدرسين وبعض الطلبة يمرّون من أمام فصلنا ويتعجّبون من هذه المعلمة القديرة التي جعلت فصلنا فصل الإصغاء الجميل بعد

أن كنا فصل المنحرفين، تشرح لنا ببساطة وسلاسة وإقناع، وتسأل الضعاف من غير أن تُشْعِرهم بضعفهم أسئلة سهلة ويسيرة وتسأل المتفوقين أسئلة تناسب قدراتهم وتُرضي غرورهم، وكانت الأغلبية تجيب، وكانت تعطينا قطع الحلوى وأرباع الجنيهات الورقية، لقد أصبح لديَّ الكثير من أرباع الجنيهات مكتوب عليها إلى تلميذتي المتفوّقة أو إلى العبقرية التي سيكون لها مستقبلٌ عظيم، أو إلى دكتورة المستقبل عوافي، لقد أخذت منها ما يمكّنني من شراء حذاءٍ جلدي بدلاً من ذلك الذي تمزّق وأوشكت أن أفعل ذلك لأقي نفسي من نظرات الشفقة والسخرية التي يسبّبها لي هذا الحذاء البلاستيكي، لكن الكلام الذي كتبته لي الأستاذة بدرية على أرباع الجنيهات جعلني أتراجع وأحتفظ بهذه النقود لتكون شاهدة على تفوقي الدراسي.

أحببنا الأستاذة بدرية، وصرنا نتنافس على إرضائها بكل الطرق، وصار عرفات الشهير بمشاكل، وأحمد الملقب بدخانة، وحمكشة الملقب بغباوة لا يريدون إلا رضاها عنهم، نطلب منها أن تأتي إلينا في كل حصة فارغة، نقف معها قبل طابور الصباح وفي الفسحة وبعد انتهاء اليوم الدراسي، نسألها الأسئلة التي عجزنا عن فهمها، وتجيب بأسلوب سلس، تحل مشاكلنا، وتقف بجوارنا دائماً؛ لهذا انجذبنا نحوها، لكنني لاحظت استياء الأستاذ حسُّوب مدرس الأحياء، كان الأستاذ حسُّوب ينظر نحوها كلما رآها بقرفٍ، وكان يتحدّث عنها أمام بعض الطلبة والمعلمين بشكلٍ سيئ، لم تكترث بنظراته الغاضبة ولا بكلماته الجارحة

واقتربت منّا أكثر، وفي منتصف شهر مارس عندما أخرجت الأرض نيرانها، واقتربت الشمس من الرؤوس، في ذلك الموعد الذي يتمكّن الملل فيه من المعلمين، وتكثر فيه المشاكل، وتصبح فيه الدراسة مملّة والتعلم حملاً ثقيلاً، ويهجر الطلبة فيه المدارس وهم يرددون: شهر مارس مفيش مدارس!! في هذا الوقت دخلت الأستاذة بدرية الفصل، ألقت علينا التحية مبتسمة، أخرجت من حقيبتها الجلدية الأنيقة بعض الأوراق، قالت: إنها حوّلت قصة جزيرة الكنز المقررة علينا ضمن مادة اللغة الإنجليزية إلى نصٍ مسرحي سوف نقوم بتنفيذه خلال الحصص الفارغة أو في الفسحة، وعندما نتقن أدوارنا فسوف نعرضها في طابور الصباح، فرحنا كثيراً، وبدأ كلٌّ منّا يسأل: هل ستختاريننني في فريق التمثيل يا ميس؟ وكانت تبتسم وتقول: نعم.

هدأ الفصل تماماً وأنصتنا للأستاذة بدرية بكل حواسنا، قالت: إنها سوف ترشّحني وترشّح غادة ومي وأمنية وسوسن لدور أم جيم هوكنز، فرح الأولاد وفرحنا، ثم شكرتها واعتذرت ومثلي فعلت غادة، قلنا: إن مواد الصف الأول الثانوي كثيرة ولن نجد وقتاً للتمثيل، فاختارت أمنية، لكن أمنية قالت: إن أباها لن يوافق على قيام بنته بالتمثيل في مسرحية فيها أولاد، رشّحت مي وسوسن ففرحتا بهذا الترشيح، وتنافستا على تجسيد هذا الدور، ثم نظرت إلى أحمد وقالت له: إنه سوف يقوم بدور جيم هوكنز، ففرح أحمد وقال لزملائه: إنه سوف يعثر على الكنز، ثم وقف عرفات وطلب منها دوراً، ووعدها بأن يلتزم ويحفظ دوره جيداً ويؤدّيه

ببراعة، اندهشنا جميعاً؛ لأننا نعرف أن عرفات طيلة السنوات الماضية لم يحفظ كلمة واحدة من كلمات اللغة الإنجليزية فكيف يأخذ دوراً كله باللغة الإنجليزية؟! وماذا سيقول فيه؟! لكن الأستاذة بدرية قالت: إنها تثق في عرفات، وسوف تساعده على القيام بدوره هذا، وطلبت منّا أن نساعده؛ لأنه زميلنا، ثم قالت: إنها ستعطيه دور بيلي بونز، فصاح مسروراً وهو يردد: بيلي بونز، وصحنا تشجيعاً لعرفات، ثم وقف حمكشة بعوده القصير وبدنه الثخين وابتسامته الودودة وقال في مودة: أنا ممكن أخذ دور فيلنت يا ميس؟ قالت له: نعم.

وزّعت بقية الأدوار على الزملاء والزميلات، وجاء الطلبة المنقطعون وعاد الغائبون، وبعد أن شرحت لنا درساً وفهمناه بدأنا التدريب على المسرحية، بدأ زملائي وزميلاتي في تجسيد أدوارهم، فضحكنا من كل قلوبنا، وعرفنا مما تتكوّن المسرحية، واكتسبنا مفردات جديدة، وحفظنا كل الكلمات التي وردت في القصة، وبدا لنا أن التحدث باللغة الإنجليزية أيسر من شرب الماء، وأجمل من أكل ثمار المانجو، واكتشفنا صفات جميلة في أحمد وحمكشة وعرفات ومي وسوسن، وأشادت الأستاذة بدرية بزملائي وزميلاتي، وأُعجبت بالمستوى الذي وصلوا إليه، وطلبت من كل واحد منهم أن يرتدي ملابس تناسب دوره، وطلبت منّا مساعدتهم في ذلك، ثم أخبرتنا أن البروفة القادمة ستكون البروفة النهائية وبعدها سنعرض المسرحية في طابور الصباح، قفز الأولاد فرحاً، وكادت رؤوسهم تلمس السقف.

ذهبنا إلى المدرسة مبكراً، قابلنا بعضُ المعلمين باستياء وبعضهم قال لنا صراحة: إن السنة الدراسية قد انتهت واستنكر حضورنا، لكننا صعدنا إلى الفصل وبدأ الطلاب الممثلون يعرضون ملابسهم وإكسسواراتهم، فرحنا بالألوان التي ملأت الفصل وجاءت الأستاذة بدرية، ألقت علينا تحية الصباح، وعرض عليها الطلاب الملابس وقطع الإكسسوارات، لكنها طلبت منهم إخفاء هذه الأشياء وأخبرتهم بأنها سوف تراجع الوحدة الأولى وبعدها ستبدأ البروفة النهائية وبسرعة مسكت إصبع الطباشير الأحمر، وظلت تكتب وتسأل ونجيب وتصفّق، وفي لمحة عين انتهت من مراجعة الوحدة الأولى، وأعلنت بدء البروفة النهائية، وفي سعادة لم أرَ مثلها من قبل خرج الطلاب والطالبات وبدأوا التمثيل، وبدأنا نشاهد جيم هوكنز وأمه، وبيلي بونز، وفلنت، وترلاوني، واندمج أحمد وعرفات وحمكشة ومي وبقية الطلبة والطالبات في أدوارهم، وتزاحم طلاب وطالبات من فصول أخرى وتزاحم معلمون ومعلمات وعمال وإداريون حول الباب والنافذة، وفجأة دخل الأستاذ حسُّوب غاضباً، سبّ الأستاذة بدرية، وخطف نص المسرحية من يدها ومزّقه، وضرب الطلاب والطالبات الممثلين بعنف شديد، وأمرهم بالجلوس في مقاعدهم، ثم قال للأستاذة بدرية: إنها بهذه الطريقة تعلّم الطلبة والطالبات الانحلال والفوضى، وإنه لن يرضى بهذا، أشارت له الأستاذة بدرية في ثقة نحو الخارج وهي تصيح: اطلعْ بره.

خرج وهو يتوعّدها وخرجنا لنقف بجوار الأستاذة بدرية التي

أغرورقت عيناها بالدموع، قال أحمد: إنهم يكرهونه، وقال عرفات: إنه مجنون، وقالت أمنية: إنها ستحكي لأبيها مدير المدرسة كل ما حدث منه، أما الأستاذة بدرية فقالت وهي تمسح ما سال على خدها من دمع: إنها ستكتب مذكرة بما حدث وستقدّمها للمدير، سألها حمكشة هل سنقدّم المسرحية في طابور الصباح غداً؟ وقالت له: نعم وطلبت من الممثلين جميعاً أن يبذلوا كل ما في وسعهم خلال العرض، وطلبت من باقي الفصل أن يقفوا بجوار زملائهم، ثم ختمت كلامها قائلة وهي توشك أن تبكي: من يحبني لا يدخر جهداً خلال العرض، طمأنها الجميع، وقال أحمد: إنهم لن يخذلوها ووعدها عرفات برفع رأسها.

صباح يوم العرض ـ وقبل بداية الطابور ـ دخل رجلٌ أبيض أنيق، وخلفه رجلان أصغر منه سنّا وأقل منه أناقة، عرفت أن الرجل الأنيق مدير إدارة البداري التعليمية، هرول العامل بجلبابه الصعيدي وهو يسند العمامة فوق رأسه نحو مدير المدرسة، أخبره الخبر، ارتبك المدير، وقال في حيرة: ما الذي أتى به الآن؟ ومن أين أُحْضِرُ طلاباً له؟ كان يعتقد أن الطلبة كعادتهم في مثل هذا التوقيت لم يحضروا، لكن العامل أخبره بأن الطلبة يملأون فناء المدرسة، تساءل: كيف؟ وقال العامل: إنهم جاءوا اليوم ليشاهدوا مسرحية الأستاذة بدرية! قال المدير: أي مسرحية؟ رد العامل: الكنز.

ابتسم المدير وخرج مطمئناً، قابل مدير الإدارة، سلّم عليه، وبدأ طابور المدرسة وبدأت فقرات الإذاعة، لاحظتُ أن الأستاذ حسُّوب

غاضب وعيونه حمراء مثل ذئب يوشك أن ينتقم من عدوه، والأستاذ حسام ترتعش فرائصه من الخوف، والطالبة مقدِّمة الإذاعة تقدّم المسرحية مسرورة، تقول: إن قريتنا لأول مرة تشاهد عرضاً مسرحياً، ثم تضيف: إنها من إعداد وإخراج الأستاذة بدرية وتمثيل طلبة وطالبات فصلنا، ثم تبتسم وتقول: فصلنا الذي كان يلقب بفصل المنحرفين، يصفق مدير الإدارة وتابعاه ويتبارى الجميع في التمثيل، تملأ الألوان والموسيقى والضحك أرض الطابور لأول مرة، ويُلقّب الطلبة أحمد بـ: هوكنز، بعد أن ظلوا سنيناً يلقبونه بدخّانة، ويلقبون عرفات بـ: بيلي بونز، بعد أن كان يناديه الجميع بمشاكل، ويلقبون حمكشة بـ: فلنت، بعد أن ظلوا ينادونه بغباوة، لقد غيّرت الأستاذة بدرية أحمد وعرفات وحمكشة إلى الأفضل، واندهش كل من شاهد المسرحية من التَّحول الذي حدث لعرفات وصاروا يرددون: عرفات الذي كان لا يعرف حرفاً صار يمثّل وباللغة الإنجليزية!

انتهى العرض، صفّق الجميع بحرارة إلا الأستاذ حسُّوب وبعض المعلمين، أمسك مدير الإدارة الميكروفون وشكر الأستاذة بدرية والممثلين وقال: إنه فخورٌ بهذه المدرسة وبما رآه اليوم، وأخبرهم بأنه سيرسل للجميع شهادات تقدير ومكافأة مالية لكل طالب ثم صمت لحظة وقال: إن هذه المسرحية سوف تُعْرض في الحفل الختامي لأنشطة الإدارة، فصفّقت الأستاذة بدرية والممثلون والمدير ثم سارت الأستاذة بدرية حتى وقفت تحت شجرة صفصاف تتوسط الفناء، وشكرت كل

فريق العرض وهي توشك تبكي من شدة الفرح، ثم نظرت حولها يميناً فيساراً، وعندما لم تجد أحداً قالت ـ وهي توصينا ـ: إن الامتحانات على الأبواب وإن الأستاذ حسُّوب سيكون مراقبَ دورٍ علينا، وسيحرق لجاننا، وسيمنع فيها الغش، ثم صمتت لحظة وقالت ـ وهي تنصحنا ـ: لهذا يجب أن تذاكروا دروسكم وتستعدوا للامتحان كي تنتقلوا جميعاً إلى الصف الثاني الثانوي وتقدّموا مسرحية أخرى معاً!

شكرناها، واعتذرنا لها عما سبّبناه لها من متاعب ومشاكل، ووعدها الجميع وفي مقدمتهم أحمد وعرفات وحمكشة بالجد والاجتهاد، ثم ودّعتنا وهي تبتسم ابتسامتها الودودة وتقول بصوتها الشجي: مع السلامة، ويرد الأولاد بصوتهم الأجش: مع السلامة يا أحسن أستاذة في الدنيا كلها.

أعود إلى البيت، أتحدّث بإعجاب عن الأستاذة بدرية، يلاحظ أبي أنني أُكثر من الحديث عنها فيبتسم ويقول لي وهو يبتسم: الأستاذة بدرية من شجرة مباركة لا تثمر إلا النافع والمفيد، أبتسم وأقول له ـ قبل أن يخرج ويذهب إلى الجمعية الزراعية كي يستلم حصتنا من الأسمدة ـ: وماذا عن الأستاذ حسُّوب؟ فيستدير ويقول وهو يبتسم: ربنا يصلح حاله.

تبدأ امتحانات نهاية العام، نجلس في اللجان، يأتي الأستاذ حسُّوب بأوراق الأسئلة والإجابة، يشدّد على الملاحظين، يحرق اللجنة على حد قوله، فنفكر ونكتب في أوراق إجاباتنا حتى عرفات وأحمد وحمكشة

يفكرون ويكتبون، يراهم الأستاذ حسُّوب هكذا ويرتاب فيهم ويفتّشهم، لكنه لم يجد معهم شيئاً، قالوا له: إنهم لم يعودوا محتاجين للغش، لم يصدقهم، وكان كل عشر دقائق يباغتهم ويفتشهم، لكنه لا يجد معهم شيئاً، وبعد ثلاث ساعات خرجنا، كان أحمد وعرفات وحمكشة فخورين بأنهم لم يغشوا هذه المرة، يقول أحمد: إنه خائفٌ من الأحياء، ويقول حمكشة: إنه خائفٌ من اللغة الإنجليزية، يضحك عرفات ويقول: إنه سيساعدهم في إجابة امتحان اللغة الإنجليزية بعد أن أحبّها بفضل الأستاذة بدرية، ويقول أحمد، إنه سيجد حلاً يمكنهم من النجاح في الأحياء.

دخلنا امتحان اللغة الإنجليزية، ورغم أن الأستاذ حسُّوب منع الأستاذة بدرية من دخول اللجان لقراءة الامتحان، إلا أننا وجدناه لأول مرة في حياتنا سهلاً، أجبت عنه كله وأجاب أحمد وحمكشة وعرفات عن أغلبه، ارتاب فيهم الأستاذ حسُّوب، فتشهم أكثر من مرة، حاول عرفات أن يغيظه فقال له: إنهم لا يحتاجون للغش بعد أن كرمهم الله بالأستاذة بدرية، غضب الأستاذ حسُّوب منه وتوعّده قائلًا: فلنرَ هذا التفوق في الأحياء، خفت أنا وغادة وبعض البنات من صعوبة الأحياء، أما الأولاد فلم يكترثوا بكلامه، تعجبّت من عدم خوفهم من امتحان الأحياء، وسرعان ما عدت لامتحان اللغة الإنجليزية حتى أجبت عنه كله، ثم خرجنا قبل الوقت المحدّد للخروج دون بكاء أو صراخ كما تعوَّدنا، وجدنا الأستاذة بدرية تنتظرنا، سألتنا عن الإجابات،

فرحت بنا، شكرتنا؛ لأننا لم نخيّب ظنّها ثم ابتسمت وودَّعتنا، قال أحمد ـ أو جيم هوكنز كما نلقبه هذه الأيام في همس ـ: إنه يريدنا ثم خطا بعوده الطويل وجسده النحيل نحو آخر صفصافة تقف شامخة جنوب غرب الفناء، وهناك أخبرنا في همس إنه تمكّن من الحصول على امتحان الأحياء، ارتبنا فيه، لكن حمكشة أكّد كلامه، قال عرفات لحمكشة: إنك تؤكد كلام أحمد؛ لأنه قريبك، فأعطى أحمد كلاً منا نسخة من الامتحان، وطلب منّا ألا نعطيه لأحد ليس من فصلنا، فشكرناه، لكن غادة قالت له: أأنت متأكد أن هذا الامتحان هو الذي سيأتي هذا العام؟ وقالت مي: لو وجدنا أنه ليس هو فسوف نرسب هذا العام. وقالت سوسن: كيف حصلت عليه؟

عندما لاحظ أحمد عدم تصديقنا طلب منا أن نسمع، ورفع تليفونه المحمول لأعلى، وداس على زر تشغيل المكالمات المسجلة، وسمعناه يكلّم الأستاذ عيد مدرس الأحياء المنافس للأستاذ حسُّوب، ويطلب منه نسخة مجاب عنها من امتحان الأحياء، وافق الأستاذ عيد شريطة أن يدفع له جيم هوكنز ألف جنيةٍ عندما يستلم النسخة وألف جنيةٍ أخرى بعد الامتحان عندما يتأكّد أنه هو، ثم تنتهي المكالمة المسجلة ونعود إلى بيوتنا، نحفظ إجابات الأسئلة التي أعطاها لنا أحمد، ثم ندخل اللجنة ونجد الامتحان كما هو، أستنكرُ بيني وبين نفسي هذا المعلم الذي باع ضميره، ويفرح عرفات وحمكشة وأحمد ويجيبون إجابات نموذجية يراها الأستاذ حسُّوب وهو يمر علينا فيفقد أعصابه ويصيح: كيف حدث

هذا؟ يقول له عرفات ـ في برود وهو يحاول غيظه ـ: لقد حبّبتنا الأستاذة بدرية في العلم. يوشك حسُّوب ينفجر في وجه عرفات لكنه يتحكّم في نفسه ويخرج وهو يصيح بأعلى صوته: كيف حدث هذا؟

تنتهي الامتحانات، نوّدع الأستاذة بدرية وأستعد للعمل مع أبي؛ هو يكسر السباخ وأنا أهرول خلف الحمار، أذهب إلى الحقل ثم أعود، هكذا أكثر من خمسين مرة في اليوم الواحد، ينظر الناس نحوي ويقولون لأولادهم في لوم: إنني متفوقة في دراستي وأعمل مع أبي يداً بيد، يعزق وينقر وأرمي البذور وأنقّي الحشائش، أحش ويحمل الحشائش، يحصد وأربط الحزم بالحبال الليف، يوقّع عيدان الذرة وأقطعها وأقشّرها، وأنقّي أوراق الملوخية، وبعد العشاء تأخذني زوجة أبي وتغسل لي رأسي بالماء الذي يغلي والصابون الماسخ عديم الرائحة، ثم تأمرني بدخول حجرة الخزين والاستحمام فيها ثم تمسك رأسي وبفلايتها الخشبية تسرّح لي شعري، لم تكن تفعل هذا معي في السابق، الآن وقد تفوّق أولادها مثلي أحسّت بقيمة تفوّقي وتأثير ذلك على أولادها وتغيّرت معاملتها معي، فظلّت تغسل لي رأسي وتمشّط شعري وتصنع لي ضفائر وتجبرني على الجلوس مع أبي وإخوتي أثناء الأكل، أحمد الله؛ لأن بنات كثيرات هنا لم يتمكّن من الذهاب إلى المدرسة مثلي رغم عشقهن للتعليم، ولا يجلسن مثلي مع آبائهن عند تناول الطعام؛ لأن البنت في بلادنا للأسف لا تساوي الولد، ولا يخرجن من البيت وكأن الذئاب سوف تنهش لحمهن، لكن أبي يثق بي، ويعطينني حريتي وأنا أصون نفسي وأصونه،

صحيح أن حذائي بلاستيكي مقطّع وسكرتير المدرسة يخرجني من الحصص؛ لأنني لم أدفع رسوم الكتب، لكن أنا رغم كل ذلك أحسن حالاً من بنات قاوات الأخريات.

تأتي أمنية لزيارتي، تخبرني بأن فصلنا كله نجح هذا العام، ثم تؤكّد لي أنني من الأوائل وأن أحمد وعرفات وحمكشة نجحوا، فلا أصدق، فتؤكد لي ما قالته، ثم تخبرني بأن أباها حوّل المذكرة التي كتبتها الأستاذة بدرية في الأستاذ حسوب إلى الإدارة التعليمية وتقول: إن الشؤون القانونية في الإدارة عاقبته بالخصم خمسة أيام من ماهيته، وتؤكد أنه أصبح لا يطيق رؤيتها في المدرسة وعندما يستعد أبي للذهاب إلى الحقل وتشعر أنني سأذهب معه تستأذن منّي وتعود إلى بيتهم، وأخرج مهرولة خلف أبي قاصدين حقل وادي الشيح البعيد، وقبل أن أصل أرى غادة تقف أمام بيتهم، تشير لي وهي تطلب منّي الذهاب إليها، فأستأذن أبي ويسمح لي.

تسألني عن النتيجة وأخبرها بما قالته أمنية لي، تفرح لي ولنفسها وللزملاء، ألمح الحزن في عينيها، أسألها عما بها، وتقول لي: إن خطوبتها على واد عمها الأسبوع المقبل، أستنكر هذا وأذكّرها بحلمها المتمثل في دخول كلية الطب أو الصيدلة وإعجاب المدرسين بذكائها فتبتسم في مرارة وهي تبعد عينيها عنّي، وتحكي لي عن الأمراض المزمنة كالضغط والسكر اللذين أصابا أباها، وعن عدم إنجابه للأولاد وعن خوفه عليها هي وأختها بعد موته، خاصة أنهما بنتان لا أخ لهما في قريةٍ تنظر إلى المرأة

نظرة دونية لا ترتقي لمكانة الرجل للأسف الشديد، أغضب من هذه الانهزامية وأطلب منها أن ترفض هذه الخطوبة وتعود للدفاع عن حلمها، لكنها تقول ما يقوله ناسنا هنا في قريتي: واد العم من حقه ينزّل بنت عمه من على الحصان! يملكني الحزن على صديقتي غادة، وأتمنّى أن يحدث شيءٌ يعطّل هذه الخطوبة ويُعيد غادة إلى حلمها القديم وأهرول خلف أبي، أدخل في بحر الخضرة، أعمل بعزيمة قوية، يبتسم لي أبي ويقول: أنتِ كفةٌ وإخوتك كلهم كفة يا عوافي!

تظهر النتيجة، يدور عامل النظافة حاملاً شهادات النجاح الورقية، يفرح جميع طلاب فصلنا، لكن أكثر من فرحوا كان عرفات، فهو لم يكن يتخيّل أن ينجح بدون غش، عرفات الذي أحبَّ أبوه ممرضة من قرية مجاورة وتزوَّجها، ثم كي ينفق عليها كان يشتري الأجهزة الكهربائية بالقسط أي: غالية الثمن ثم يحرقها أي يبيعها كاش بتراب الفلوس، وبذلك يوفّر بعض المال الذي ينفقه على زوجته الجميلة التي يعشق التراب الذي تمشي عليه، لكن بعد شهور تراكمت الديونُ عليه، وقدّم الدائنون إيصالات الأمانة ضده للمحكمة، وحكمت المحكمة بحبسه، فلم تحتمل أم عرفات العيش بدون رجلٍ ينفق عليها، فطلبت من أبيه الطلاق وهو في السجن، وعاش عرفات مع عمته العانس التي لا مصدر عيشٍ لها سوى الجنيهات التي تأخذها من تكافل وكرامة التي أطلقها الرئيس السيسي بغرض حماية الفقراء.

بعد أربع سنوات خرج أبوه من السجن، وتزوّج بنتاً أخرى، وطلبت

منه زوجته الجديدة ترك هذه القرية ذات الرزق الضيق والتي يكثر فيها دائنوه، والذهاب إلى القاهرة حيث الرزق الواسع، وبالفعل يسافر أبوه ويأخذها معه، ويترك عرفات مع عمته التي لا أمل لها في الحياة سوى تعليم عرفات؛ لهذا عندما يذهب العامل بشهادة النجاح تفرح كثيراً وتضمّه إلى صدرها وهي تبكي وتزغرد، ثم تدخل مسرعة وكأن قطاراً يجرها، وتمسك الإوزة الوحيدة التي تملكها وتعطيها لهذا العامل.

أتأمّل في كل ما حولي وأنا ذاهبة مشياً إلى الحقل أو عائدة منه، وأفكر في حالي عندما لا يكون لدي عملٌ أقوم به، يشغلني أطفال قريتي وألاحظ أنهم صاروا عدوانيين، يجلسون أمام بيوتهم أو تحت الجدران الفقيرة يتلقفون المارة ويسبونهم بأقذع الألفاظ ويضربونهم بالحجارة، أصبحت أخاف المرور من أمامهم كي لا أسمعهم وهم يشتمون، ولا أراهم وهم يلقون عليّ الحجارة، ويقولون: أم جزمة مقطوعة، اليتيمة الحافية الفقرية! كنت أتحمّل وأصبر؛ لأن معظم المشاكل والمعارك هنا في قاوات سببها الأطفال، وأنا لا أحب أن يتشاجر أبي مع أحدٍ بسببي، فهو سندي الوحيد ويكفيه ما سبّبه أخي الشقيق له.

اللعنة على هؤلاء الأطفال الذين قاموا بعمل صفحات وهمية على شبكة الإنترنت وظلّوا يكتبون كلاماً نابياً، وشكّ الناس في بعضهم وتوتَّرت العلاقات بينهم، وزادت المعارك والجروح والقتلى والسلاح بسببهم، كان أبي يحمد الله على أنني أنا وإخوتي لا نشبه هؤلاء المارقين وأننا نعمل معه في أرضنا طيلة النهار، لم أقل لأبي: إن عيال فلان

يقولون عنِّي: إني يتيمة أو بجزمة بلاستيكية، وحتى عندما قال أخي المولود فوق رأسي: إنه سيأخذ عصا ويخرج ليضرب أولاد فلان الذين ضربوه بالطوب وقالوا له وهو ذاهبٌ إلى الحقل يا مسلول نظراً لنحافته الشديدة أقنعته ألا يكترث بهؤلاء، وينشغل بعمله مع أبيه وبقراءة الكتب التي يحبها.

طويلة هي الليالي في الريف، وثقيلة عندما لا يكون لديك عملٌ تعمله ولا شيء يلهيك ولا أنيس نفسه ينشر الدفء في الحجرة، بدأت أفكر في حالي، قلت: البيت واسع والغلال والحشائش متوفرة فلماذا لا أستأذن أبي وزوجته وأربّي بعض الطيور؟ قالت زوجة أبي في ضيق: ماذا تربّين؟ عليكِ أن تهتمي بطيوري ولا داعيَ لتربية طيورٍ جديدةٍ، لم أستطع أن أوضِّح لها أنني أريد الاعتماد على نفسي، وأنني سأقوم بذلك كي أشتري ملابسي وكتبي، وأدفع ثمن مجموعات التقوية التي ربما أحتاج إليها في المستقبل، نظر أبي في وجهي ويبدو أنه لمح بوادر ضيقٍ مكتومٍ في عيني فقال لي: إنه غدًا سيبيع عجلاً وسوف يعطينني من ثمنه خمسين جنيهاً؛ لأشتري بهم ما أريد، ثم أضاف قائلاً: إنه خصَّص لي حجرة الخزين وأمر زوجته بنقل كل متعلقاتها منها وتركها لي، أفرح بما فعل أبي، لكن سرعان ما أجد طيف المرحومة أمي يحاصرني والدموع تسيل على خدودها، أضمّها وأمسح دموعها وأؤكد لها أنني لن أخيّب أملها فيَّ، وأنني سوف أتفوّق في دراستي، وسأدخل كلية الطب، وأصبح أول دكتورة من قاوات.

اشتريت خمسة أزواج حمامٍ، صنعت لهم من بقايا العيدان والعشب والحشائش أعشاشاً، وضعت في طبقي لهم ماءً، وظللت أرقبهم حتى عشقت الحمام بهديله وشعره وعشقه لبعضه وإسعاده لي؛ حيث إنه بسرعة وضع البيض وبعد واحد وعشرين يوماً فقس البيض وكبر الأزواج الخمس، وذبحت لأبي وإخوتي زوجين، وبعت ثلاثة أزواجٍ لرجلٍ يأتي من عزبة الأقباط يجمع الحمام ويسافر به إلى القاهرة ليبيعه هناك، فرحت بما صنعت، ثم وضعت ثمنهم في حصّالتي، أكلنا الويكة ثم وزّعت علينا زوجة أبي نصيبنا من الحمام وهي تقول: حمام عوافي!

فرح أبي وإخوتي، وأشادوا بطعم حمامي المقلي في السمن البلدي، وفرحت أنا بطعم حمامي الذي كبر أمام عيني، وقرّرت أن أستمر في هذه اللعبة الممتعة، فذهبت إلى حجرتي وفتحت حصّالتي ووجدت أن ما ادّخرته يمكنني من شراء خمسة أزواجٍ أخرى دون أن أمد يدي على النقود التي منحتها لي الأستاذة بدرية، وأخذت النقود المدّخرة واشتريت خمسة أزواجٍ أخرى، وظللت أستمتع بالعيش معهم في حجرة واحدة وأنا أردد: ما أجمل العيش مع الحمام، منه أتعلم الرقة والنقاء والسلام والتضحية من أجل الآخرين.

أظل أذهب إلى الحقل، أعمل مع أبي وإخوتي الذكور، أنتقي لحمامي أنعم الحشائش كالمليسة والرِّجلة، وأضخم قناديل الذرة الشامية والرفيعة، أغيّر له الماء كل يوم وأقص له الشعر كي لا يطير ويتركني في قاع العزلة ويسكن أعشاش غيري ويُمتّع غيري ببياضه وهديله، أنظف

له المكان كي لا تتكون الهيلة التي تأكل الجلد دون رحمة، وأضع كرات الشّيح الصفراء كي لا تجرؤ الثعابين على الاقتراب منه حتى كثر حمامي وتجاوز العشرين زوجاً، وكثرت قروشي، وأصبح في مقدوري أن أشتري مريلة زرقاء جديدة، وقميصاً أبيض جديداً، وحذاء جلدياً جديداً لكن قلت لنفسي: لا، لن أشتري سوى حذاءٍ بلاستيكي والباقي أدّخره كي أسدّد منه رسوم الكتب وبعض الكراسات والكشاكيل والأقلام والكتب.

انتهت العطلة الصيفية، وبدأ العام الدراسي، كان معظم الطلاب والطالبات يلبسون مرايل وقمصان العام الماضي باستثناء قلة، مثل أحمد وأمنية ومي وسوسن، كنا جميعاً مثل أشجار خرجت من الشتاء وبدأت تستقبل الربيع، كنا مشتاقين على غير العادة للمدرسة؛ والسبب في ذلك رغبتنا في رؤية الأستاذة بدرية والاستمتاع بمسرحياتها الشيّقة وروحها التي تشبه نغمات آلة جيتار، وبالفعل بدأ العام الدراسي وعرفنا فصولنا، ذهب أحمد وعرفات وحمكشة وسوسن إلى فصول القسم الأدبي الكثيرة العدد، وذهبت أنا ومي وغادة وأمنية وبعض الذين يبحثون عن وظائف إلى فصل القسم العلمي، وانتظرنا دخول الأستاذة بدرية كي تصعد بنا إلى عالم الأحلام، لكنها لم تدخل ولم نصعد، وبقينا مثل أشجار سقطت أوراقها في الشتاء، كتب الأستاذ حسُّوب الجدول في السبورة وعرفنا منه أنها لن تعطينا لغة إنجليزية هذا العام؛ نظراً للعجز الشديد في معلمي اللغة الإنجليزية، يقول المدير: إنها ستدرّس للصف الثالث؛ لأنه

شهادة، نحزن ونرجوه أن يوافق على قيامها بالتدريس لنا فيقول: لا مانع لدي، لكن اذهبوا إليها واعرضوا عليها الأمر، وإن رضيت أن تأخذكم فوق نصابها فسوف أرحّب بقرارها.

بسرعة ذهبنا إليها وعرضنا عليها مشكلتنا وطلبنا منها أن تعطينا اللغة الإنجليزية، فقالت: إن جدولها مكتمل وإن الإدارة لن تعطيها أي أجر مقابل حصصنا، فقلنا لها: إننا نحبها ونحب شرحها ونعشق العيش في ربيع الأحلام معها، وإننا لم نفهم لغة إنجليزية إلا على يديها، ووعدناها بأن نكون في غاية الانضباط في حصصها، فصمتت لحظة ثم ابتسمت وقالت: وماذا إذا فعل أحدكم ما يغضبني؟

صحنا جميعاً فرحين وأكدّنا لها أننا سنكون في غاية الانضباط ووعدناها بعدم الخروج عن قواعد العمل بالمدرسة، فوافقت، وفرحنا وقفزنا في الهواء وهرولنا سعداء ناحية مكتب المدير لنخبره بأنها رضيت بأن تقوم بتدريس اللغة الإنجليزية لنا.

في اليوم التالي جمّعتنا الأستاذة بدرية في فصل واحد، راجعت لنا ما سبق، وكأنها تشرحه للمرة الأولى، أو كأننا نحلّق معها للمرة الأولى في فضاءات البهجة والجمال والصفاء والمتعة، كانت طيلة الوقت تحافظ على ابتسامتها وجاذبيتها، وكنّا أرضاً ظمأى مستعدة للتشبّع بكل ما تقوله، وبعد أن شرحت وراجعت جلست على الكرسي لتتحدّث معنا في مودة كعادتها، وقبل أن تبدأ طلب منها عرفات تحويل قصة مغامرات جليفر المقرّرة علينا ضمن مادة اللغة الإنجليزية إلى عرض مسرحي مثل العام

الماضي، وبسرعة أخبرها أنه سيجسّد دور جليفر، وأحمد زميله سيجسّد دور الملك، ومي ستجسّد دور زوج الملك، وحمكشة سيجسّد دور زعيم الأقزام؛ فنضحك وتبتسم الأستاذة بدرية وتشكر عرفات وزملاءه على أنهم اهتموا بالقصة وقرأوها وعرفوا شخصياتها قبل أن تتناولها بالشرح، ثم تبتسم وتطلب منهم تأجيل مسرحة القصة حتى تتمكّن من تحويلها إلى نصٍ مسرحي كي تصلح للتقديم على خشبة المسرح الفقير، وحتى تتقدّم في المنهج بعض الشيء، ثم تصمت لحظة وتعدهم بأنها ستقوم بتحويل قصة مغامرات جليفر إلى عرضٍ مسرحيٍ هذا العام يقومون فيه بالتمثيل والتجسيد، ثم تصمت لحظة وتبتسم ابتسامتها الساحرة وتقول: إنها ستلعب معنا هذا العام لعبة جديدة، نفرح كثيراً بهذا العرض ويدرك أغلبنا أنها ستصعد بنا إلى جنة الخيال، ولكن بطريقةٍ جديدةٍ، نسألها عن هذه اللعبة التي تريد أن تلعبها معنا، لكنها تبتسم وتبدأ فيها مباشرة، تسأل أحمد: ماذا تريد أن تكون في المستقبل يا أحمد؟ بدون تفكير يقول أحمد: ضابط شرطة، تقول لنا مؤكّدة: إن أحمد يحلم أن يكون ضابط شرطة، ويقول حمكشة: إن هذا حلم أحمد منذ الصغر ثم يضيف قائلاً: إنه ابن عائلةٍ كبيرة وأبوه ثري يمتلك فيلا وأراضيَ ومالاً، وعمه لواء شرطة يتولّى منصب نائب مدير أمن إحدى محافظات الدلتا، وإنه سوف يتوسَّط له ويمكّنه من دخول هذه الكلية العظيمة، تقول لحمكشة: إن كل هذا رائع، وإن أحمد يستحق أن يكون ضابط شرطة، لكن الأروع أن يصبح أحمد ضابط شرطة؛ لأنه يستحق ذلك، وليس

لأن عمه توّسط له ثم تصمت لحظةً وتقول لأحمد: إنك من الآن ضابط شرطة، ولكن إن فعلت شيئاً يتناقض مع حلمك فسوف أجرّدك من هذا الحلم، يعدها أحمد بالالتزام وتشير له وهي تقول: تفضلْ يا حضرة الضابط، ويجلس أحمد في هيبة وتواضع، ثم تنظر إليَّ وتباغتني قائلة: وأنتِ يا عوافي ما حلمك؟ وقبل أن أتخلّص من ارتباكي وقبل أن أقول لها شيئاً يصيح الأولاد والبنات في صوتٍ واحدٍ: دكتورة، دكتورة، عوافي سوف تكون دكتورة، أرتبك وتغطّي الحمرة وجهي الأسمر، ولا أدري ماذا أقول لها، فتبتسم لي وتقول لي: إنني متفوقةٌ وعلى درجة عالية من الأخلاق الحسنة وبقليل من الاهتمام والتركيز سوف أحقّق حلمي، ثم تربت على كتفي وتقول لي: تفضلي، اقعدي يا دكتورة عوافي، ثم تسأل حمكشة عن حلمه وبسرعة يقول لها حمكشة: إنه يرغب في أن يكون في المستقبل شيفاً مشهوراً، نضحك وتسأله: لماذا؟ ويقول: إنه يحب الطعام، ويحلم أن يكون شيفاً؛ لأن الطباخين دائماً ما يظهرون في التليفزيون والطعام الكثير والمتنوع أمامهم، وهم يأكلون منه ما يريدون، نضحك ثم تشير له بالجلوس وهي تقول: تفضلْ يا حضرة الشيف، ثم تسأل مي عن حلمها وتقول: إنها تحلم أن تكون ممرّضةً، وتسأل أمنية وتقول: إنها تحلم أن تدخل كلية الصيدلة؛ لأنها تحب الكيمياء وتسأل غادة لكن غادة تغرورق عيناها بالدموع وتحمّر خدودها وتبكي، فتأخذها الأستاذة بدرية في حضنها وتطبطب عليها كأنها أم حنونة وتسألها عما بها، لكن بكاء غادة يزداد، فأهمس في أذن الأستاذة بدرية،

وأخبرها بأن غادة طيلة سنوات الدراسة السابقة كانت متفوقة وكانت من الأوائل وكانت تحلم أن تدخل مثلي كلية الطب، لكن أباها قرّر أن يزوّجها لابن عمها، وسوف تنقطع عن المدرسة وتعيش حياة الجمود، بل حياة الانهيار مثل شجرة يابسة وسط برودة الشتاء، تضم الأستاذة بدرية غادة أكثر إلى قلبها وتمسح دموعها حتى تهدأ وتبتسم، وبذكاء تسأل الأستاذة بدرية عرفات وهي ترغب في أن ننتقل من منطقة الحزن إلى البهجة قائلة: وأنت يا بيلي بونز عندما تكبر ماذا تريد أن تكون؟ يضحك عرفات وهو يقول: أنا كبير الآن، تبتسم وتقول له في استفهام: ماذا تريد أن تبقى في المستقبل يا كبير؟ يقول عرفات بخفّة دم وظرف: إنه يريد أن يكون ممثلاً مشهوراً مثل الفنان أحمد زكي، وبسرعة يقلّد الأستاذ أحمد زكي ويقول: أستاذ كابوريا/ بتاع اللابوريا/ لو قزقزوكي / أقزقز إيه؟ تضحك الأستاذة بدرية ويضحك الأولاد والبنات وتقول الأستاذة بدرية: إنها لاحظت أن عرفات طيلة العام الماضي كان بارعاً في تجسيد معظم النماذج البشرية، وإنه يمتلك طاقات تمثيلية رائعة، وإنها شخصياً معجبةٌ بتمثيله وبموهبته، وإنها ترى أنه لو اهتم بنفسه وبموهبته فسوف يكون ممثلاً مشهوراً، يشكرها عرفات بطريقة الممثلين الكبار ويجلس بشكل كوميدي في مكانه.

تؤكّد الأستاذة بدرية على حلم كل واحدٍ منَّا وتقول: إن كل واحد منّا سيتقمّص النموذج الذي اختاره شريطة أن نكون قدوة لغيرنا من الطلاب وأهل قاوات، وشريطة الالتزام بقواعد المدرسة وعدم الخروج

عليها والاجتهاد في دروسنا، نعدها جميعاً بأن نكون عند حُسن ظنها، وتُفاجِئ أمنية الجميع قائلة: سوف تشتركين معنا في هذه اللعبة يا أستاذة؟ تبتسم وتقول: معكم يا أمنية، تقول لها أمنية: قلنا أحلامنا، ما حلمك أنتِ؟ تسرح الأستاذة بدرية بعيداً وهي تفكر ثمّ تقول: إنها كانت تحلم أن تكون أديبة تكتب روايات وقصصاً مثل قصة مغامرات جليفر وجزيرة الكنز وغير ذلك؛ لكنها بسبب انشغالها بالدراسة والعمل والحياة لم تحقّق حلمها، يطلب منها أحمد أن تشترك معهم في اللعبة شريطة أن تقدّم كل فترة فصلاً من روايتها الجديدة، وفي حال عدم تقديم فصلٍ جديدٍ سوف لن نلقبك بالأديبة، وسوف نكتفي بالأستاذة بدرية، بدرية فقط، تقبل التحدي الذي وضعناها فيه وتوافق على طلبنا، وينطلق الجميع صوب الخيال ليؤدّي كلٌّ منا دوره في هذه اللعبة الشيقة، ننطلق مثل فراشاتٍ تبحث عن زهورٍ.

كانت كلما نادت واحدًا منّا تضع لقبه أمام اسمه، تقول مثلاً لي: اقرئي يا دكتورة، وأجبْ يا شيف حمكشة، وتعال يا حضرة الضابط أحمد، واذهبي يا دكتورة غادة، وأين الصيدلانية البارعة أمنية؟ وكنا جميعاً نرد: أمرك يا أديبتنا، لقد تقمّص كل منَّا دوره وجسّد كل منّا حلمه وعرفنا أن محاكاة الأحلام الجميلة تضفي شيئاً من البهجة وتحمُّل المسؤولية.

يا الله إنه مع الدخول في الحلم وتكرار الألقاب والأفعال صدّقنا أنفسنا، لقد لاحظنا جميعاً أن أحمد بدأ يرتدي ملابس نظيفة وجميلة مثل

الضباط، وإنه قصّ شعره مثلهم، وأصبح محافظاً على الحضور مبكراً، والانصراف بعد نهاية اليوم، وتوقّف عن التدخين، وتوقّف عن الشجار مع زملائه ومعلميه، وصار مهموماً بأن يكون فصلنا أكثر الفصول انضباطاً وحضوراً وتفوقاً، وأقلهم غياباً وإثارة للمشاكل وهروباً ونطّاً من فوق السور، لاحظت ذلك الأستاذة بدرية وأشادت به، وظلت تنادي أحمد بحضرة الضابط، وتشيد بما يفعله، وتطلب منه أن يستمر في ذلك ويزيد من تلك الأفعال المفيدة، وتشيد بالتزامي أنا وتكرّر: الدكتورة عوافي وأنا أبتسم في سعادة، وتشيد بالدكتورة غادة وتؤكّد أنني وغادة برعنا في نظافة الفصل وفي نشر القواعد الصحية السليمة وفي دروسنا، وتؤكّد أننا لم يُلق علينا سؤالٌ إلا وأجبنا عنه، كذلك تشيد بدور الصيدلانية أمنية التي صنعت أجزخانة صغيرة أنيقة ملوّنة من علب الكوكاكولا الفارغة وجلبت لها الأدوية وقسَّمتها حسب نوع المرض.

لقد ثبتت ألقابنا جميعاً إلا مي وحمكشة اللذين هدّدتهما بسحب اللقب منهما وذلك؛ لأن مي كانت تمسك القلم وتغزّ به أبدان زميلاتها أثناء الشرح، اشتكت منها سوسن فهدّدتها الأستاذة بدرية بتجريدها من اللقب؛ فبكت واعتذرت ووعدتها بعدم فعل ذلك مرة أخرى. أما حمكشة فقد جمع من كل طالبٍ وطالبةٍ ربعَ جنيةٍ وقال لهم: إنه سيشترى بعض الخضروات واللحوم ويصنع لهم وجبةً شهيةً، صدّقوه، وأعطوه ما طلب من مالٍ، لكنه ذهب واشترى بالمبلغ كله ساندوتشاتِ كبدةٍ ممتلئة بالمواد الحرّيفة، وأكل وحده هذه الساندوتشات كلها وسرعان ما

شعر بآلام شديدة في بطنه ونُقل إلى المستشفى، وهناك أخبر الطبيب أباه بأنه أُصيب بنزلةٍ معويةٍ شديدةٍ نتيجة تناوله طعاماً ملوثاً، عمل له الطبيب غسيل معدة وبعد أكثر من عشر ساعات عاد إلى البيت، تبتسم الأستاذة بدرية ثم تبيّن الخطأ الذي وقع فيه حمكشة دون أن تلقّبه بالشيف، وتحذّره من تكرار ذلك وتقول: إنها ستعطيه فرصة ثانية وإذا ضيّعها فسوف تحرمه من اللقب نهائياً ومن المشاركة في العرض المسرحي القادم، يعتذر حمكشة وتتقبّل اعتذاره، ثم تنظر ناحية عرفات الذي ظلّ طيلة الفترة الماضية هادئاً منتبهاً للشرح، لا يثير المشاكل كعادته وتقول له وهي تبتسم ابتسامتها التلقائية: ماذا ستقدّم لنا هذا اليوم يا فنان؟ يقول: إنه سيقلّد الفنان أحمد زكي الذي يعشقه، تنتبه وينتبه معظمنا إلى أن عرفات خلال الفترة الماضية نجح في أن يكون قريب الشبة من نجمه المفضل؛ شعره الأكرت وسمرة بشرته ومصرية ملامحه، تشيد باختياره وتلقّبه بالفنان وتطلب منه أن يتقدّم ويجلس مكانها كي يراه كل زملائه ويستمتعون بما سيقدمه.

يتقدّم عرفات، يجلس على الكرسي الخيزراني مثل أحمد زكي، يقول: إنه سيقلّد أحمد زكي في آخر مؤتمر صحفي له، تقول الأستاذة بدرية: إنها شاهدت هذا اللقاء عبر التليفزيون، وتقول سوسن: إن هذا اللقاء كان قبل أن يموت بمرض السرطان الذي سببه له كثرة التدخين، وتقول أمنية: إنه أصعب لقاءٍ أجراه الفنان أحمد زكي؛ حيث إنه كان يعاني آلام مرض السرطان الذي لا يُحتمل، لكن عرفات ينظر لأسفل ويضع يده

فوق جبينه كمظلةٍ ويستجمع كل تركيزه ثم يرفع رأسه ونرى وجه أحمد زكي وحزنه وعيونه وأنفه وشفتيه الكبيرتين، نصدق جميعاً أنه أحمد زكي، يقول: (حبيبي، هيه، كل لحظة وأنتو طيبين، هيه، عايزين نقول كل سنة وأنتو طيبين، هيييييه، كل لحظة وأنتو طيبين، هيه، يعني كل لحظة تعدّي من حياة الإنسان في نجاح وتقدّم وصحة، كل لحظة تعدّي على خير الإنسان يحمد ربنا ويشكر فضله، هيه، من وأنا في معهد فنون مسرحية كنت أقول لعفاف شعيب؛ لأنها كانت زميلتي في الدفعة إن عبد الحليم حافظ حلم حياتي، هل ممكن يجي اليوم اللي أعمل فيه فيلم عن عبد الحليم حافظ، عبد الحليم مات بسبب البلهارسيا والمرض اللي عندي ده سببه البلهارسيا، عـ عـ عـ عبد الحليم كان بيشبهني في حاجات كتيرة جداً، أنا كنت عايزكو تدعولي عشان دا بجد حلم حياتي ، أشوف وشّكو بخير، شكراً).

يصفّق الجميع بحرارة شديدة وتضم الأستاذة بدرية عرفات إلى قلبها ضمّةً حسده عليها الماكرون حتى يستعيد عرفات هدوءه وطبيعته ويعود إلى مكانه وقد استطاع أن يقنع الجميع أنه ممثل بارع وهنا رفع أحمد يده، سمحت له الأستاذة بدرية بالكلام، قال لها: تفضّلي يا سيدتي، الدورُ عليكِ.

جلست الأستاذة بدرية بالفعل، أخرجت ثلاث ورقات، قالت: إنها ستقرأ الفصل الأول من روايتها التي لم تُنشر بعد، والتي اختارت لها اسم (ضي) وبدأت تقرأ وكأنها تقرأ قصيدة مؤثرة:

دخل عمي عامر بيته الطيني الذي لا يوجد به إلا دجاجة يتيمة وكانون طيني وكنكة سقطت يدها المعدنية فاسْتُبْدِلت بساقٍ من السلك بدلاً منها وحصيرة مهترئة ومخدة من ليف النخل وزير فخاري، دخل مسروراً وهو يهمّ في مشيه، مال على أذن زوجته فكيهة ذات البشرة البيضاء والعيون الكحيلة وهي تضع الحناء التي تعشقها فوق شعر رأسها لتخفي الشيب الذي بدأ يهاجمها، قال لها جملة واحدة فبلعت ريقها وكست الصفرة وجهها الأحمر الجميل، ثم لملمت نفسها ووقفت وخطت خطوات نحو قفَّة العيش، أحضرت له كسرةَ خبزٍ سوداء وقطعةَ جبنٍ قريش عليها بعض حبات الكمُّون، وضعت العشاء أمامه وتعمّقت في البيت بحثًا عن شلَّع، كان الظلام الذي يحاصر القرية ثقيلاً كجبل، ومخيفاً كذئب مسعور لدرجة أنك لا ترى ما تعوّدت رؤيته، فلقد اتحدت علينا ظلال الجبال الشاهقة التي تحاصرنا من الشرق ومحاق القمر فزاد الظلام، لقد كان السواد في كل شيء، كان السواد يحاصر أبدان النساء ورؤوس النساء، ويغزو البيوت والعقول والنفوس، وكنا لا نعرف من الألوان إلا اثنين؛ الأسود والأبيض لكن شلَّعَ كانت عكسنا تماماً، فهي مغرمةٌ بجمع قصاصات القماش التي تزيد من الخيّاطات، وبالتحليق خلف الفراشات الملونة في الغيطان، وبجمع نوّار الويكة الصفراء والرمّان الحمراء والباذنجان الزرقاء والفول البيضاء، لقد حُرِمَت القريةُ كلها من الألوان إلا شلع التي لا تقبل العيش بدون ألوانٍ.

تعمّقت فكيهة في البيت، عثرت على شلع وهي تحدّق في السماء، جلست بجوارها وجدتها تصنع من قصاصات الملابس الملونة فستاناً ملوناً، ضربتها على يدها، وأخذت منها الإبرة وقالت لها في لوم: حذرتك ألف مرة من الخياطة ليلاً، فمن يقم بالخياطة ليلاً يخيط دون أن يدري عيون الموتى من أهله، ثم تحسَّست صدرها وذكّرتها بأنها بلغت الحلم وصارت عروسة، وقالت لها: إن البنت الذكية هي التي تتزوّج مبكراً وتبني بيتاً وتؤسّس أسرة، قالت شلع لأمها: إنها لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها، وإنها تريد أن تكمل تعليمها، ذكّرتها الأم بفقرهم وضيق معيشتهم وغضب أبيها وأخيها الأكبر لو علما برفضها الزواج، ثم قالت لها: إن فرّاجاً شابٌ جميلٌ وسيوفّر لها عيشةً أفضل من هذا المرار الذي تعيش فيه، ونصحتها بأن توافق على الزواج، وذكّرتها بعمتها المرحومة كريمة وما حدث لها ثم خرجت.

عندما سمعت شلع اسم العمة كريمة تذكرت ما حدث لها، وجف ريقها، وشعرت بأن الشياط يخرج من رأسها وبأن بطنها تتمزّق، وظل طيف عمتها كريمة يقتحمها؛ مرة وهي تصرخ وتقول: إنها لن تعيش مع عويس الذي لا تطيق رائحته، ومرة عندما كانا يضربانها كما يضربان الحمير التي ترفض المشي، ومرة عندما كانا يقصَّان شعرها الطويل الكثيف شديد السواد، ومرة عندما كانت تتعرَّض للكي بالنار، ومرة عندما قام أبوها عامر وأخوها الأكبر خلف بتفطيسها ووضعها في جوال من الخيش ووضع حجرين ثقيلين معها داخل الجوال ثم سحبها إلى

الترعة الكبيرة ورميها فيها؛ لتصبح طعاماً لأسماك الترعة وخاصة القراميط التي تعيش في حُفر القاع!

تنزل دموع شلع، يكاد حلقها يتشقق، تأكلها الحيرة وتظل طوال الليل تفكّر فيما يجب أن تفعله شجرة يابسة يحاصرها الشتاء وتحلم بالعيش في الربيع؟ تمسك قطع القماش الملونة والزهور الجميلة والفراشات وتتذكّر إشادات المعلمين بتفوقها وتتذكر معلم الرسم الذي ظلّ يدور على المدرسين وهو يمسك لوحةً جميلةً ويقول لهم: إن هذا الرسم رسم شلّعَ، وتفرح فرحة عمرها، وتقرّر عدم التخلي عن حلمها، لكن سرعان ما تسيل دموعها، ويزداد جفاف حلقها وشياط رأسها وتقطُّع أمعائها عندما تتذكّر ما حدث لعمتها المرحومة كريمة!

تنتهي الأستاذة بدرية من القراءة، تبلع ريقها، يتغيّر لون بشرتها، يصفّق الجميع، يلقّبها عرفات بنجيب محفوظ المدرسة؛ فتبتسم وتسألها أمنية عن قرار شلّع وتعدها بأن تستكمل لهم حكايتها قريباً، أمّا غادة فتبكي، فأربت على كتفها وأخفّف عنها؛ لأنني أدرك التطابق بين ما يحدث لغادة وما حدث لشلّع، تلاحظ الأستاذة بدرية بكاء غادة ومحاولتي التخفيف عنها وتقول: إن ما حدث لشلع من الممكن أن يحدث لأي واحدة منّا!

ويستنكر أحمد العنف الذي وقع على كريمة من العم عامر وولده والذي سيقع على شلّع إذا ما رفضت الزواج، ويعقّب هو وحمكشة قائلين: إن العم عامر وولده خلف عديما الرحمة وهنا تتدخّل الأستاذة

بدرية وتوجّه كلامها للأولاد، تمدحهم على رفضهم ما حدث لشلع، وتنصحهم عندما يكبرون ويصبحون إخوة لبنات مثل شلّع بألّا يقهروا أخواتهم ولا يفرضوا عليهن ما لا يحتملن، وفجأة يرنّ الجرس وتنتهي الحصة؛ فيحزن الجميع ويتمنّى ألا تكون قد انتهت هذه الحصة الشيقة، تبتسم الأستاذة بدرية وتلملم حاجاتها وتخرج وحولها الأولاد والبنات وهم يلقّبونها بالأديبة مرة وبنجيب محفوظ المدرسة مرة أخرى، ويذكّرونها بالجزء الثاني كي يعرفوا ما سيحدث لشلّع.

شدّني جدًا الجزء التي قامت الأستاذة بدرية بتأليفه والحقيقة إنني انشغلت بشلّع وما سيحدث بها وبقيت مشتاقة لمعرفة قصتها ومعرفة مدى مطابقتها لجارتنا الحاجة شلّع وزوجها الحاج فراج، أقول لنفسي: هل هما هما أم إنه تشابه أسماء؟

من وقتها تغيّرت علاقتي باللغة العربية وصرت أعشقها، لقد كانت بالنسبة لي لغزاً غير مفهومٍ، ثم صارت كائناً رقيقاً كله مشاعر وأحاسيس، صرت أبحث عن قصاصات جرائدٍ من تلك القصاصات التي بها قصائد أو قصص أو أجزاء من روايات وأنا ذاهبةٌ إلى المدرسة أو عائدةٌ منها وكان يومُ عيدٍ ذلك اليوم الذي تمسك فيه يدي بقصاصةٍ بها قصيدة أو قصة مثل قصة شلع، كنت ألتهمها التهاماً وهكذا ظللت مشغولةً بشلّع والقصص ودروسي حتى لاحظ أبي أن جلد يدي وعنقي ووجهي قد التهب وعرف أن سبب ذلك هو الهيلا التي تتكوّن بسبب الحمام الذي أربّيه في حجرتي، وبسرعة أحضر لي بعض الطمي

اليابس والدمس الزائد من التبن، وبدأت أعجن الطين بالدّمس حتى صار كعجينة الشوكولاتة ثم بدأت في بناء بنّية للحمام، نقلت الحمام فيها، ونظّفت حجرتي من بقاياه ثم بنيت أخرى لدجاجاتي وبطي وإوزي، ونظّفت حجرتي، وعكفت على مذاكرة دروسي؛ كي أحتفظ بلقب الدكتورة التي منحتني إياه الأستاذة بدرية والذي صار الجميع ينادونني به.

أصبحنا في المدرسة يُشار إلينا بالبنان، يقول المدير والوكلاء والإداريون وغالبية المعلمين ومعظم الطلبة: إن صفنا أكثر الصفوف حضوراً ومواظبة وأكثرهم تنفيذاً للتعليمات وأكثرهم تحصيلاً للعلم وأكثرهم مواهب وأقلهم غياباً وإثارة للمشاكل، ويثنون على أحمد والتحوُّل الذي طرأ عليه، ثم يتحدّثون عن عرفات والتغيّر الذي حدث له، ويتعجّبون من هذا الطالب المستهتر الذي كان لا يبكي على شيء ولا يكترث بشيء في هذه الدنيا، وقد تحوّل إلى شخصٍ مسؤولٍ خفيف الظل يحب المدرسة ويحترم زملاءه وأساتذته ويحرص على إضفاء البهجة والسرور على الجميع ثم يسهبون ويتحدّثون عن حمكشة والأطعمة الشهية التي صار يصنعها لزملائه وأساتذته، ويتحدَّثون عنّي وعن غادة وأمنية ومي، لقد صرنا محط إعجاب المتابعين ولجان التفتيش وأهل القرية، لقد انتهى شتاؤنا وبدأ ربيعنا وبدأت البراعم الخضراء الجميلة تنبت في الفروع اليابسة والأشجار الميتة، وبدأنا نحسُّ بجمال أنفسنا وجمال الحياة.

تدخل الأستاذة بدرية غير مكترثة بردود فعل بعض المعلمين الذين لا يرضون عن طريقتها، وتشرح لنا الفصل السابع من القصة مبتسمةً كعادتها وفي تشويق لذيذ ونتجاوب معها، تشيد بالمجهود الذي بذلناه خلال الفترة القصيرة التي تتلمذنا فيها على يديها وبالتقدُّم الذي أحرزناه، يقف عرفات ويطلب منها البدء في تحويل القصة إلى مسرحية كما فعلت العام الماضي، تبتسم وتقول لنا: إنها لن تبدأ فيها حتى تنتهي من شرحها وتتأكّد من إجادتنا لها ثم تخبرنا بأنها اقترحت على مدير المدرسة عمل مسابقةٍ لأفضل فصلٍ دراسي في منطقتنا القابعة في حضن الجبل الشرقي، تشمل التحصيل الدراسي والانضباط والنظافة وكرة القدم والرسم والتمثيل، نصيح جميعاً في سرورٍ ونعدها بالفوز في هذه المسابقة.

تطلب غادة من الأستاذة بدرية استكمال رواية (ضي) لمعرفة مصير شلّع ونؤيّدها في طلبها؛ لأننا كنا في غاية اللهفة لمعرفة ما حدث لشلع، لكن الأستاذة بدرية تطلب من عرفات تقديم فقرةٍ جديدةٍ وبعدها تقرأ لنا الجزء الثاني من رواية (ضي) كما تسميها أو شلّع كما نسميها نحن، يتقدَّم عرفات وهو يحك يديه ببعضهما أملاً في الحصول على القليل من الدفء بعد أن جمّد البرد أناملنا، يقف أمام الطلاب، يقول بنفس نبرة صوت الرئيس الراحل محمد أنور السادات وملامحه وحركاته: (لست أظنكم تتوقّعون مني أن أقف أمامكم اليوم لكي نتفاخر معاً ونتباهى بما حقّقناه في أحد عشر يوماً من أهم وأخطر بل أعظم وأمجد أيام التاريخ)، نصفّق بشدة إعجاباً به وتشجيعاً له، يكمل عرفات قائلاً:

(وربما جاء يوم نجلس فيه معاً لا لكي نتفاخر ونتباهى بما حقّقناه في أحد عشر يوماً من أهم وأخطر بل أعظم وأمجد أيام تاريخنا)، نصفّق له بحرارةٍ تشجيعاً له وإعجاباً ببراعته الشديدة في تقمُّص شخصية الرئيس الراحل محمد أنور السادات، يكمل عرفات قائلاً: (ربما جاء يومٌ نجلس فيه معاً لا لكي نتفاخر ونتباهى لكن كي نتذكّر ونفكّر ونعلّم أولادنا وأحفادنا جيلاً بعد جيل قصة الكفاح ومرارة الهزيمة وآلامها وحلاوة النصر وآماله) نضحك ونحن نصفّق له بحرارة، يشكرنا عرفات ثم يسحب مقعداً ويضعه بجوار الأستاذة بدرية، يجلس في رزانة وهدوء، يقول بلغةٍ رصينةٍ وشاعرةٍ وهو يقلّد الإعلامي فاروق شوشة: (أهلاً بِكَ أيها المشاهد الكريم في لقاءٍ جديدٍ من لقاءاتنا الأدبية، اللقاء هذه المرة مع مبدعة موهوبة من مبدعات الصعيد، مبدعة تكتب الرواية بشكل بديع وبلغة شاعرة، ضيفتنا وضيفتكم هذا المساء هي الروائية المتفردة بدرية الشواف).

نصفّق تحية له على براعته في التقليد ومقدرته على تجسيد أدق التفاصيل سواء المرتبطة بملامح الوجه أو الصوت أو الجسد، يطلب منه حمكشة أن يقلد المعلقين الرياضيين العرب وتطلب منه سوسن أن يقلّد الفنان محمد سعد، يعدهما بذلك ويعود إلى مقعده فتتّجه أنظارنا نحو الأستاذة بدرية، نصفّق بحرارة تشجيعاً لها ونحن شغوفون بمعرفة ما سيحدث لشلّع المسكينة.

تُخرج الأستاذة بدرية بعض الأوراق من حقيبتها الجلدية الأنيقة

التي زُينت بصورة فتاة فرعونية شديدة الجمال تعزف آلة فرعونية كبيرة، تفتح الأوراق، تقرأ:

خافت شلع من تكرار ما حدث لعمتها كريمة معها، خصوصاً أن أباها وأخاها الفاعلين الرئيسين في واقعة عمتها كريمة ما زالا يعيشان بقلبين كالصخر أو أشد قسوة، فلم تجرؤ على قول كلمة لا أمامهما وحزنت حزناً ثقيلاً على فقدان أحلامها وألوانها وقصاصاتها وفراشاتها وطموحها، وكما لم تقدر على قول: لا، عجزت كذلك عن قول: نعم، لقد كانت كلما همَّت أن تقول: نعم تنزل الدموع في فيها وتختنق الكلمات في حلقها، فاعتبر أبوها وأخوها أن صمتها هذا قبولٌ، واعتبرا أن دموعها هذه دموعُ فرحٍ وسعادة؛ لأنها على حد قولهما عثرت على عريس وهي صغيرة وبسرعة أرسلا لفراج يُخبرانه بالموافقة!

جاء فراج مسرعاً وهو في كامل أناقته؛ جاء حليق الرأس والشارب واللحية، جاء بجلباب أبيض وشال أبيض مزهّر وعمامة بيضاء كبيرة وعصا خيزران، جاء والعطر النفاذ الرخيص يفوح منه، جاء وهو يردّد كلمات الإطراء والثناء والغزل لهذه الطفلة التي لم تبلغ الحلم بعد، قرأ فراج الفاتحة مع العم عامر، ودخّن دخان القص الساخن مع الريس خلف، واختلس النظر إلى شلع القابعة في زاوية الفناء، وغافل الجميع وقال لها بعض أبيات الشعر الشعبي الغزلية وهو يدّعي أنه يشرب الماء من الزير، ثم أخذ شلَّعَ وأمها والعم عامراً والريس خلفاً إلى طما غرب النهر، اشترى لها من هناك الذهب والملابس والمكحلة والحنّاء وزجاجة

عطر نفاذة الرائحة رخيصة الثمن، ثم أكلوا طعمية ساخنة وعيش طابونة ساخناً أيضاً، وعادوا إلى قاوات ليتحدّثوا عن القطار الطويل الذي يطيح بأي شيء أمامه حتى البشر والطعمية الساخنة ولذاذتها وخبز الطابونة ذي الرائحة الفريدة والمركب العتيقة المتهالكة التي كادت تغرق بهم وسط النهر الغاضب.

جاءت الخيّاطة، وصنعت روميّة عرسٍ بيضاء شديدة النعومة وبعض القمصان الحمراء وبعض الأثواب المحتشمة لشلع، وكلما مسكت المتر ووضعته حول خصر شلع النحيف بسبب الصغر والجوع كانت توشك أن تلعن أباها؛ لأنه سيزوّج بنتاً صغيرة كهذه لرجل ضخم مثل الفيل كفراج، لاحظت فكيهة ذلك على الخيّاطة، وطلبت منها أن تصنع الملابس فقط ولا تتدخّل فيما لا يعنيها، ثم قالت: إن بناتها مرغوباتٌ من الرجال ويتزوجن صغيراتٍ، قالت الخياطة: حرام عليكم، ردت الأم: إنها معتّقة وقادرةٌ على الزواج، وقادرة على الحمل والولادة! امتعضت الخيّاطة لكنها لم ترد على أم خلف، وانشغلت بعملها وسط زغاريد النسوة وقطع القماش الملونة والنقوط الذي يدفعه الأقارب والمحبون، ثم جاءت الماشطة العجوز ونزعت ما نبت من شعرٍ زائدٍ في جسد شلع، كان الشعر النابت قليلاً لكنها نزعته مستخدمة قطعة من عجينة القمح تشبه الصلصال ذا اللون العسلي، ثم هذَّبت ما شوشر على جمال الصّبية ودعكت جسدها المتناسق الجميل بالليفة والصابونة والماء المغلي، وغسلت شعر رأسها وكحّلت عينيها وحكّت بالخرشفة كعبي

رجليها، وألبستها قميص العرس الأحمر والرومية البيضاء الناعمة فوقه، وعطّرتها بالعطر النفّاذ الذي اشتراه لها فرّاج، ثم بعد أذان العصر جاء فراج بالسيارة الوحيدة في القرية ليأخذها من بين الترعة الكبيرة والحقول الخضراء والقصاصات الملونة والفراشات الجميلة ليضعها في الحجرة الوحيدة في بيتهم القريب من الجبل الشرقي!

عاشت شلّع مع فراج وأخيه محمد وزوجته وردانية وأولاده الصغار وأختيه منى ولواحظ في الحجرة الوحيدة بالبيت بعد أن خرج منها محمد وزوجته وردانية وتركها لأخيه فراج يتزوّج فيها، فعادة الناس هنا أن مَنْ تزوَّج يترك حجرة الزوجية لأخيه الأصغر منه عندما يتزوج ويعيش هو وزوجته في فناء البيت.

كانت شلع نشيطة جداً، تستيقظ مبكراً مع الفجر والعصافير، تصلّي ثم تنهمك في الأعمال المنزلية، تجهّز ما تيسَّر من طعام الإفطار وتطعم الطيور وتكنس البيت وتقدّم الماء والحشائش والتبن للبقرة وتغسل وتطبخ، تملأ الزير، كانت تفعل كل هذا بطيب نفسٍ، وكانت إذا صنعت كوب شايٍ يقول شاربه: الله، وإذا جهّزت طعاماً يقول آكله: الله، وإذا غسلت شالاً أو جلباباً يقول كل من يراه: الله، لهذا نالت محبة واحترام فراج ومحمد ومنى ولواحظ، أما زوجة سلفها محمد فتمكّنت الغيرة من قلبها وناصبتها العداء، لكن شلعَ كانت تقابل هذا بالابتسام والصفح.

حملت شلّع وبدأ الشباب والرجال في قريتنا يسافرون إلى العراق للعمل هناك بعد أن ضاقت الأرزاق هنا، تأمّلت حياتها ووجدت أن

فراجاً العايق القوي البدن يضيّع يومه في الجلوس على المقاهي والثرثرة مع الناس تحت الحيطان في أشياء لا طائل منها، فأخبرته بحملها وضيق العيش الذي يعيشون فيه، ثم طلبت منه أن يسافر مثل غالبية الشباب والرجال ويعمل مثلهم ويجلب المال والأجهزة الكهربائية والملابس الملونة لهم وضربت له مثالاً بالسيد عبيد الذي لم يكن يملك سهماً واحداً من أرض قاوات، ثم سافر إلى العراق وعمل واجتهد هناك، ثم عاد بأموال طائلة واشترى غالبية أرض العمدة وأرض شيخ البلد، ثم ذكّرته بمحمد عبل الذي كان يعمل أجيراً باليومية عند ملّاك الأراضي وبقايا البشوات والبكوات حتى أنه لم يترك بيتاً ولا حقلاً إلا وعمل فيه أجيراً، ثم عندما فتحت العراق أبوابها للمصريين سافر وعمل هناك واجتهد، ثم عاد من العراق ليشتري عشر سيارات ميكروباص وسيارة ملاكي ويبني سرايةً مثل سراية العمدة، يقول فراج لشلع: إنه لا يملك المال اللازم للسفر، فتنزع قرطها الذهبي وتخلع الخاتم والغويشة والحجل، وتعطيهم له كي يبيعهم ويجهّز أوراقه ويقصد باب الكريم.

تبقى شلّع وحيدة في حجرتها، لا قصاصات ولا فراشات، لا ألوان ولا أحلام، تستيقظ مبكراً، وتعمل نشيطة، وتترقّب أخباراً حلوة تأتيها من العراق، تنتظر أن يرسل لها فراجٌ بعض المال أو الملابس أو الأجهزة الكهربائية، لكن كل مَنْ سافر أرسل لأهله أموالاً كثيرة وملابس جميلة وأجهزة كهربائية حديثة إلا فراج الذي انقطعت أخباره تماماً، لكنها تصبر وتتحمّل، وأهل البيت يزدادون إعجاباً بها إلا وردانية زوجة

سلفها محمد تستكثر عليها البقاء في الحجرة الوحيدة بالبيت بحجة سفر فرّاج إلى العراق!

في البيت تثير وردانية المشاكل وتحت ظلال الجبل تشيع أن شلعَ تعشق زوجها محمداً، وتؤكد للنسوة وهي تجلب الماء من المشربية الوحيدة في قاوات أن فراجاً عشق فتاة عراقية تعمل معه في الشركة هناك وعشقته هي أيضاً نظراً لكلامه الحلو وملامحه الفاتنة وبدنه القوي، وتقول أيضاً وهي تطحن غلال القمح في طاحونة قاوات الحجرية شمال عزبة الأقباط إنه سيبقى في العراق ولن يعود مرة أخرى، تقول هذا الكلام لكل من تقابله، ثم تذهب إلى بيت عامر على الترعة الكبيرة وتقول له ولولده خلف: إن بنتهم شلّعَ تريد خطف زوجها منها بعد أن تركها فراج وسافر، وترجوهما أن يأتيا ويأخذاها بعيداً عن زوجها الذي يعولها وأولادها، وبالفعل يذهب العم عامر وولده خلف ويتحدّثان مع شلع ويأمرها أخوها بأن تترك هذا البيت وتعود للعيش معهم في بيتهم، حتى يرجع زوجها من السفر، فتذكّره شلع بأن ترك بيت زوجها وهو مسافر خسّة وهذا لا يليق بها ولا بهم، يقول في غضب: إن وردانية تقول: إنكِ ستأخذين منها زوجها، تهز رأسها في لومٍ ثم تطلب منه أن يرسل لها نقلتي طمي من ذلك الطمي اليابس الموجود على شاطئ الترعة، يسألها: لماذا؟ وتخبره بأنها ستبني لنفسها بيتاً بعيداً عن وردانية وصداعها الذي لا ينتهي، بيتاً في النصف الشمالي الفارغ من بيتهم، يوافق خلف وأبوه على رأيها، وبعد ساعتين يأتي المحراث بنقلة طمي.

وهي حامل تخرج شلع كل يوم، تمشي أكثر من كيلو متراً حتى تصل المشربية، تجلب الماء، تصبّه فوق الطمي وهكذا تذهب وتعود وتصب الماء فوق الطمي حتى يلين الطمي، وتضع فوقه الدّمس أو التبن الناعم، ثم في الظلام الذي لا يسمح لأحد برؤيتها تضع الحزام في وسطها كالرجال، وتهرس الطين وتخلطه بالدمس، وتظل هكذا حتى يختمر، ثم تقطّعه على شكل كرةٍ صغيرةٍ، ثم تصبّه في قوالبَ خشبيةٍ مصنَّعة خصيصاً لهذا الغرض، ثم تتركه في الشمس يجف، ثم تبنيه، كل هذا وهي تخفي وجهها وتكتم وجعها حتى تتمكّن من بناء ثلاث حجرات؛ واحدة لها ولفراج، والثانية لمولودها عندما يأتي، والثالثة للخزين وتزرع أمامهم الفجل والجرجير والملوخية والحلبة وتبيعهم سراً؛ لأن بيع هذه الأشياء عار في قاوات، وفي آخر اليوم تنام راضية؛ لأنها استطاعت أن تضيف إلى لون الرمال الأصفر الكالح ألواناً أخرى كالأخضر والأبيض، واستطاعت أن تعتمد على نفسها وتبتعد عن شر وردانية، لكن تظل تعبيرات وجوه العائدين من العراق كلما سألتهم عن فراج مصدر قلقٍ لها، ولا تدري هل تزوّج فراجٌ هناك؟ هل سيرجع لها؟ ما الذي حدث له في بلاد الرافدين؟ ولماذا لم يرسل لها أي شيء مثلما يفعل كل المسافرين؟ لماذا لم يرسل لها حتى خطاباً أو سلاماً أو شريطاً مسجلاً يقول فيه: إنه ما يزال حياً يرزق، وإنه ما يزال يتذكَّر أن له في مصر أحباباً يوشكون أن يجنّوا بسبب انقطاع أخباره عنهم؟ لماذا يقسو عليها بهذا الشكل ويتركها وحيدة وسط العوز والحيرة والخوف؟ لماذا؟ هل نسوة

العراق أجمل منّي؟ هل هن أرق مني؟ هل هن يحببنك أكثر مني؟ ألم تفتن بي وتقول فيَّ غزلاً جميلاً لم أسمعه من قبل؟ ألم تعدني بالإخلاص لي؟ ألم تعدني بحياة جميلة لم تعشها بنتٌ من بنات قاوات من قبل؟ فلماذا نسيتني يا فراج؟ لماذا نسيت كل وعودك لي؟ لماذا شمّت الأعداء فيَّ؟ ولماذا جعلت أحبابي يحزنون عليّ؟

نصفّق بحرارة، تلتقط أنفاسها وتستعيد وضعها العادي، تفتح زجاجة الماء، تشرب بشكل متقطّع وهي تبلّل جفاف حلقها، يقول أحمد: إنها أديبةٌ، وتقول مي: إن روايتها مؤلمةٌ وأن بطلتها شقيةٌ، وترد سوسن على مي قائلة: إن البطلة موجودةٌ بكثرةٍ في بلادنا، ينظر حمكشة إلى عرفات ويضحك وهو يريد أن يقول له ضمنياً: إن شلع تشبه عمته العانس، يقف عرفات ويقول لحمكشة وهو يبتسم: إنّ شلع متزوجة وعمته ما زالت بكراً، يضحك حمكشة ويقول له: إن لديه عريساً لها، يجاريه عرفات ويلومه في مزاحٍ على أنه سيزوّجها ويتركه وحيداً، تبتسم الأستاذة بدرية، وتقول لهم: إن شلع موجودة في القرية، ولكنهم لن يتعرفوا عليها شخصياً، وتوضّح لهم أنها تخلط الواقع بالخيال، ثم تصمت لحظة وتضيف قائلة: إنها تقدّم لهم شيئاً من الواقع، ثم تحلق بهم في الخيال ثم تطلب منهم أن يتعاملوا مع شلع التي في الرواية وليست شلع التي في الواقع، وتطلب منهم أن يتعلّموا منها ومن حكايتها، وأن يقتدوا بالجميل والحسن ويبتعدوا عن الأشياء السيئة، يوافقها الطلاب في الرأي، ويطلبون منها قراءة الجزء الثالث من الرواية حتى يعرفوا ما

حدث لشلّع، تعدهم بما أرادوا لكنها تربط ذلك بفوزهم بمسابقة أحسن فصلٍ، وتخبرهم بأنها في أشد الاحتياج لهذا الفوز كي تثبت للمعلمين الذين يحاربونها أن طريقتها في التعليم هي الصواب، وأن منهجها هو المنهج السليم، فيوافقون ويتحمسون ويكلفون أحمد بقيادتهم في هذه المهمة، ثم يرّن الجرس ويعلن بدء الفسحة، تخرج الأستاذة بدرية وأخرج خلفها، تمشي وأمشي، تلاحظ أنني أتبعها مثل طفلٍ يتبع أمه، تسألني في مودة: هل تريدين شيئاً يا دكتورة؟ أقول لها: هل شلع بطلة روايتك هي الحاجة شلع جارتنا؟ تبتسم في حنان وتخطو مبتعدةً دون أن تعطيني إجابةً، أسأل نفسي ماذا تعني؟ ولماذا لم تعطني إجابة؟ هل هي تريد منّي أن أبحث عن إجابة لسؤالي بنفسي؟ أحتار قليلاً، ثم أقنع نفسي بالصبر وأعود لأجد غادة تنتظرني، أربت على كتفها وأنجح في إقناعها بمسح دموعها، أبقى معها في الفصل طيلة الفسحة وأنا أقنعها بأنها لن تكون شلع أخرى، ولن تتعرّض لما تعرّضت له شلع، تبكي وتقول: إن أباها قرّر تزويجها لابن عمها وإنها عجزت عن قول: لا، مثل شلع المسكينة، أقول لها: إن الفرصة ما زالت سانحة أمامها كي ترفض هذا الزواج، وتنجو من شباكه الثقيلة، وأوضّح لها أنها لو حصلت على مجموع كبير يؤهّلها لإحدى كليات الطب أو الصيدلة أو التمريض فإن أباها سيعيد التفكير في قراره، وأن ابن عمها لن يقبل أن يقف في طريقها ولن يقبل أن يتزوج طبيبةً وهو لم يحصل على الشهادة الابتدائية، لاحظت أنها اقتنعت بهذه الفكرة، وبسرعة شجّعتها

على التركيز في مذاكرة دروسها كي نفوز بجائزة أحسن فصل في مسابقة أوائل الطلبة الخاصة بالتحصيل الدراسي، وافقت وهي تمسح دموعها وانطلقنا لكي نحتفظ بلقب الدكتورة الذي حلمنا به كثيراً.

يختار أحمد والأستاذة بدرية فريقنا في التحصيل الدراسي، أفرح كثيراً؛ لأنني أنا وغادة وأمنية من هؤلاء المتفوقين، ومعنا ولدان صامتان طول الوقت قالا العام الماضي للأستاذة بدرية: إنهما يحلمان بأن يكونا مهندسين، ومن يومها وهما ملكا الرياضيات في صفنا، وهما لم يخطئا في حل مسألة واحدة، وهما يحلان أصعب المسائل بأكثر من طريقة، والأستاذة بدرية تشجعهما على ذلك وتطلب منهما الحل بطرق جديدة ومتنوعة.

نجلس مع الأستاذة بدرية وأحمد، نقسّم المواد بيننا، ينطلق كل منا في بحر العلم لينهل منه؛ يراجع دروسه مراجعة دقيقة، يذاكر بتركيز كل ما أخذناه حتى يأتي موعد المسابقة، ونجلس في مواجهة الفريق المنافس، يلاحظ الجميع أننا أكثر هدوءاً وتعاوناً وتوظيفاً لقدراتنا من كل الفرق المنافسة، نفوز في المسابقة جولة بعد الأخرى، تغضب الفرق المنافسة وتتشاجر مع بعضها، تبدو الفرق الأخرى أكثر أنانية وأقل تعاوناً ونظاماً، وتُعلن النتيجة ونفرح ونتعانق وتفرح بنا الأستاذة بدرية وتؤكّد لنا أنني أنا وغادة وأمنية نستحق لقب دكاترة، أما الطالبان الآخران فيستحقان لقب مهندسين، وتحية وتقديراً من عرفات لنا يقدّم فقرة ضاحكة يقلّد فيها الفنان محمد سعد ويكشف عن قدرته الغريبة التي لم

نكن نعرفها مثل تحكّمه في ملامح وجهه وفي نبرات صوته، نقول لبعضنا: لقد رأينا الفنان محمد سعد واستمتعنا بأدواره لكننا لم ننتبه للتفاصيل التي أبرزها عرفات، ثم تتقدّم الأستاذة بدرية وتقرأ لنا:

جلست شلع في ركن حجرتها الطينية وهي تقاوم آلام المخاض والفقر، وضعت قالبي طوب لبن كنساء الفراعنة في ركن الحجرة وجلست عليهما، وشدّت ظهرها حتى وازى الجدار الطيني، وظلّت تأخذ نفساً طويلاً وتُخرجه في صراخ وأوجاع، وعلى بالها تأتي صورة أبيها وأخيها وهما داخلان على عمتها كريمة، يضع الأب يده على فمها، والمسكينة تستغيث لكن الأب القاسي لم يرفع يده حتى فارقت الحياة، وبعد أقل من ساعة جاءت فكيهة أمها ووجدتها غارقة في عرقها، وقد ولدت بنتاً جميلة الملامح مثلها، أطلقت شلع على هذه البنت اسم غربة، وظلت تُرضعها رغم شحوب لونها، وظلت تطعمها رغم جوعها، وظلت تخيط لها قصاصات الملابس الملونة، حتى وقفت سيارة أجرة القاهرة أمام البيت ذات مساء، ونزل فراج وهو يرتدي بنطلوناً وقميصاً كالأفندية، وشعره طويل وناعم، وعلى كتفه حقيبة سفر كبيرة، وفي يده جهاز تسجيل ماركة توشيبا العربي تنطلق منه الاصوات

تأخذه شلع بالأحضان، وتقدّم له بنته غربة، يحملها عالياً، يرفعها في الهواء مداعباً ثم يُنزلها ويقبّلها، تحكي شلع له عن أوجاعها وهو بعيد عنها وعن صبرها وعن الحجرات الثلاث اللاتي شيّدتهن، ويحكي لها عن بغداد وجمالها وكرم أهلها وحبهم للمصريين والفن

والحضارة، ثم يضحك ويتحدّث عن جمال بلاد النهرين، ثم يحدّثها عن الأوجاع والأمراض التي سببّتها الحرب لهذا الشعب العظيم، تحمد الله على أنه عاد سالماً وخيّب ظن مَنْ قالوا لها: إنه تزوّج فتاة عراقية تعمل معه في الشركة وتشبه الممثلة المصرية الجميلة نجلاء فتحي، يضحك بأعلى صوته ويقول لها وهو يقبّل جبينها: إنه يحبّها هي، ولا يمكن أن يتزوّج عليها، ثم يفتح الحقيبة الكبيرة ويُخرج منها ملابس ملونة ناعمة وزجاجات عطر وكريمات ويقول لها: إنه اشترى كل هذه الأشياء خصيصاً لها من شارع الرشيد أشهر شوارع بغداد العامرة، تشكره وتحمد الله على أنه عاد سالماً، ثم تقول ـ في تمنّي وهي تختبره وتحاول معرفة عدد الأموال التي جلبها معه ـ: لماذا اشتريت كل هذه الأشياء والبيت يحتاج إلى المال؟ يصمت وتنتشر الحمرة في وجهه في نفس الوقت،ينتهي شريط في المسجل ويضع شريطا آخراً تقول له وهي تبتسم في استفهام: ألم تجلب معك بعض المال مثل بقية العائدين من العراق؟ يقول وهو ينظر في عينيها بحبٍّ: إنه اشترى جهاز التسجيل والملابس والعطور والكريمات، ودفع ثمن تذكرة الطيران من بغداد إلى القاهرة بالنقود التي كانت معه، أما أمواله الكثيرة التي ادّخرها، فهي ما زالت في الشركة التي كان يعمل بها، وسيحصل عليها عندما يعود إلى العراق مرة أخرى، تقول له ـ في مرارة لا يشعر بها وهي تبلع خيبتها ـ: حمد الله على السلامة! وتطلب منه ألا يقولَ أمام الناس: إنه لم يجلب أموالاً معه من العراق؛ كي لا ينظر الناس له

باحتقار، وكي لا يخسر المنافسة عندما تتم مقارنته بالشباب والرجال الذين عادوا بأموال لا تعد ولا تحصى، وتُخْفِي غرضها في مرضها، وتظل تزرع الفجل والجرجير والملوخية وتبيعهم سراً، وتربّي الدجاج والحمام والأوز والبط وتبيعه سراً، بينما فراج يعتني بشعره الطويل وبملابسه الإفرنجية وأشرطة مسجل التوشيبا حتى يمرض أخوه محمد مرضاً شديداً، ويحتاج علاجه إلى المال، ينظر فراج حوله، ولا يجد غير النصف فدان الذي يزرعونه ويعيشون منه؛ فيبيعه ليعالج أخاه محمداً، ويظل يذهب به إلى الأطباء والمستشفيات وينفق من ثمن الأرض، حتى ينتهي ما لديهم من المال وشلع المسكينة تحافظ على وضعه ومكانته وتعطيه بعض الجنيهات التي وفَّرتها كي يرفع رأسه ولا ينكسر!

بعد شهور قليلة يموت محمد ويترك زوجته وردانية وولدين وبنتين وتصبح الحياة أضيق من ثقب الإبرة وأكثر مرارة من القرط والشّيح، فتطلب شلع من فراج أن يسافر مرّة أخرى إلى العراق، ولكنها وهي تذرف الدمع الغالي تخبره أنهم يحتاجون المال كي يعيشوا، وتحذره من الكسل والإسراف والجري وراء النساء. يقول لها: إنه لا يملك المال اللازم للسفر، فتعطيه ما نجحت في ادّخاره، ويسافر فراج مرة أخرى سعيداً سعادة شابٍ ذاهبٍ إلى المولد ويتركها تواجه الحياة القاسية وعيناها على بنتها غربة والأخرى على الجنين الذي بدأ ينمو في بطنها، وحلمها أن ينصلح حال فراج ويرسل لها المال؛ كي تعيش منه هي وغربة

وجنينها ووردانية وعيالها، لكن تمرَّ الشهور والسنون ويرجع الغائبون من العراق بالأموال الطائلة والأجهزة المتنوّعة والملابس الراقية والعطور المستوردة، وتذهب شلع لتسلّم على هؤلاء العائدين وتطمئن على فراج، لكن العائدين ينظرون إليها في شفقة ويقولون لها من وراء قلوبهم: إنهم كانوا يعملون بعيداً عنه، فتعرف أنه عاد لسيرته الأولى، فتصبر وتعتمد على نفسها وتواجه صعوبات الحياة بوجهٍ بشوش وعزيمة قوية، لكن هل ستستمر في ذلك دون أن تنكسر أو تنهزم أو تضعف؟

نصفق إعجاباً بهذا الجزء الموجع، ونطلب منها استكمال الرواية ومعرفة مصير المسكينة شلع، فتقول لنا: إننا إذا فزنا في مباراة كرة القدم غداً فإنها ستكمل لنا حكاية شلع وتنصحنا بالتعاون والبعد عن الأنانية والبعد عن مجاملة غير الموهوبين إذا أردنا الفوز، يعدها الأولاد في ثقة بالفوز واستكمال سلسلة الانتصارات التي بدأت بفوزنا في التحصيل الدراسي، وفي اليوم التالي يأتي فريقنا مرتدياً الزي الرياضي باستثناء عرفات الذي أصرّ على اللعب حافياً؛ بحجة أنه لا يتقن ركل الكرة وهو يرتدي الحذاء، لقد رفض الحكم في البداية السماح له باللعب حافياً لكن عرفات الذي لم يتعود على اللعب بالحذاء؛ نظراً لعدم امتلاكه أحذية رياضية يذهب إليه بوجه باش ويضحكه ويطلب منه أن يسامحه هذه المرة فيسمح له باللعب!

يأتي فريق مدرسة النواورة الثانوية مع بداية الفسحة بقيادة شابٍ يحبونه اسمه منتصر يوسف، يطلق الحكم صافرة البداية، ويبدأ فريق

النواورة الهجوم ويرد فريقنا وتشتعل المباراة وتزداد الحماسة وهتافات الجماهير ونشاهد مباراة يقول الطلبة المتابعون لمباريات كرة القدم: إنها مثل الريال وليفربول، لكن سرعان ما تظهر الأنانية على لاعبينا وسرعان ما يفقدون هدوءهم، خاصة عندما يقود الأستاذ حسوب الجماهير ويجعل دفّة تشجيعهم لصالح مدرسة النواورة؛ فترتبك خطوط فريقنا، ويخترقها المنافس الذي بدا أكثر تعاوناً، وأقل أنانية، وأكثر تخطيطاً، وأكثر لياقة ومهارة، ويحرزون هدفاً يعقبه هدفٌ يعقبه هدفٌ، وتنتهي المباراة لصالحهم، ويُلقي كل فرد من فريقنا باللوم على الآخر ويكادون يتشاجرون مع بعضهم، لكن الأستاذة بدرية تتدخّل وتقول: إن أنانية فريقنا وعدم تعاون أعضائه جعلتهم يخسرون جولة، ثم في استدراك تقول: لكن بقيت جولتان واحدة لنظافة الفصل والأخرى للمواهب، ثم تقول: إن الفرصة ما زالت سانحة أمامنا، وإننا ما زلنا قريبين من الفوز، لكن مع الوضع في الاعتبار أن أقل خسارة ستُطيح بأحلامنا بعيداً عن منصة التتويج، ثم تؤكّد لهم ما قالته قبل ذلك وهو: أن فوزهم أو ـ لا قدّر الله ـ هزيمتهم هما مقياس لطريقتها في التعليم لهذا ترجو منهم ألا يخسروا الكأس ثم تخطو خارجة، تقول لها غادة: إنها تريد استكمال رواية (ضي) كي تعرف مصير شلع، لكنها تمشي غاضبة ولا ترد على غادة، وكأنها لم تسمعها، تقول أمنية: إنها غاضبةٌ بسبب هزيمتنا، وتقول سوسن: إنها غاضبةٌ بسبب شماتة الأستاذ حسُّوب والأستاذ حسام فيها، ويقول أحمد للجميع في شجاعة وحزم: إننا

أخطأنا، ونقول له جميعاً: نعم أخطأنا، يقول أحمد للجميع: إنهم لن يستسلموا للهزيمة ولن يتركوا الكأس تضيع منهم، يؤيدون كلامه ويبدأون في الاستعداد للجولة الثالثة، ألا وهي مسابقة أجمل فصل، فهل سينجح أحمد وزملاؤه في الفوز بهذه الجولة والاقتراب من منصّة التتويج ورفع رأس الأستاذة الحبيبة بدرية؟

كنا قد تعلمنا من الأستاذة بدرية أن أهم شيء للإنسان المتطلع هو محاسبة نفسه وتقييمه لذاته لذلك جلسنا مع بعضنا وناقشنا في هدوء وديمقراطية سبب خسارتنا وأجمعت الآراء على أننا قصّرنا في حق أنفسنا واعترفنا أننا أسأنا للأستاذة بدرية، وكنا مثل الجنود الذين خذلوا قائدهم الذي أحبّهم ووثق بهم، ثم قرّرنا أخذ العبرة من الماضي والانطلاق إلى الجولة الثالثة ونحن مصرون على الفوز، وعلى حسب قدرات كل واحد منّا تم تقسيمنا على مجموعات، فكانت نظافة الفصل من نصيبي أنا وغادة وخمس طالبات أخريات، والتشريفة واستقبال الضيوف بطاقم ملابس موحّد وزهور حمراء من نصيب أمنية وسوسن وعشر طالبات أخريات يتصفن بجمال الشكل والهيئة، وكان نصيب مي ومجموعتها تجميل الفصل وتزيينه، وكان نصيب أحمد وحمكشة وعرفات تعليق الزينة ولوحات الترحيب وصنع المكتبة وتطوير الصيدلية!

بدأنا بعزيمة رجل صعيدي عنيد، ذهبتُ قبل طلوع الشمس إلى المدرسة وكانت البداية تنظيف الأدراج من الأوراق وبقايا الطعام والأقلام، بدأت درجاً فدرجاً، وعندما وصلت إلى درج عرفات وجدت

تمثالاً رائعاً من الصلصال، حدّقت فيه مندهشة، إنه في غاية الجمال، إنه للأستاذة بدرية، أعجبني التمثال جداً وحسدت عرفات على كل هذه المواهب التي منحها الله له، قلت: لقد عوضّه الله عن تخلّي أبيه وأمه عنه بهذه المواهب الجميلة، وظللت أتفحّص ملامح التمثال وأندهش من براعة عرفات حتى فوجئت بأمنية تقف خلفي وتقول في إعجاب: الله! وتشيد ببراعة عرفات في إبراز التفاصيل الصغيرة، سألتها: من الذي قال لكِ: إن عرفات هو الذي نحت هذا التمثال؟ تجلس قبالي وتحدّثني عن موهبة عرفات في التشكيل بالصلصال منذ كان معها في الحضانة، وقبل أن أسألها عن سبب اختياره للأستاذة بدرية وقيامه بصنع تمثال لها تقول: إن الأستاذة بدرية تقوم بمساعدة عرفات مادياً؛ فهي تدفع له الرسوم سراً، وتشتري له الأدوات المدرسية والملابس سراً، أقول لها: من أين عرفتِ كل ذلك؟ تقول: إنها سمعت أباها في البيت وهو يحكي لأمها وأمها ترد على أبيها: هذا ليس غريباً على حفيدة الشوّاف!

أندهش ويزداد حبي للأستاذة بدرية، تسمع أمنية أحد المعلمين ينادي عليها ويخبرها بأن أباها يريدها، تخرج أمنية، أعدت التمثال مكانه ثم نظفت الدرج وظللت أنظّف الأدراج الأخرى وأنا أتوقّع أن أجد فضلات أو خطابات غرامية أو أعقاب سجائر أو حبوباً ممنوعة كعادة بعض الشباب المارقين في هذه المرحلة، لكنني انتهيت من تنظيف كل أدراج الفصل ومقاعده، وللأمانة لم أجد أي شيء من هذا.

جاءت اللجنة، وكانت مكونة من معالي مدير التعليم الثانوي

بمديرية التربية والتعليم بأسيوط، ومعالي مدير إدارة البداري التعليمية، ومعالي مدير التعليم الثانوي، انبهروا منذ اللحظة الأولى بحسن الاستقبال فأمنية وزميلاتها وزملاؤها ارتدوا قمصاناً بيضاء وبلوزات زرقاء، واستقبلوا الضيوف بباقات الزهور الحمراء ذات الرائحة العطرة، ثم انبهروا بلوحات الترحيب التي اختار الطلاب عباراتها بعناية شديدة وكتبوها بخط جميل في ورق جميل، ثم ذُهلوا عندما وجدوا الفصل وقد تمّ تزيينه باللون الأزرق ودرجاته فقط، وسألوا عن صاحب هذه الفكرة التي سمت بالفصل إلى مصاف الجدود العظماء محبي الزرقة والسمو، وعندما قال أحمد: إنها مي زميلتنا، أخرج معالي مدير التعليم الثانوي الأستاذ مينا يوسف خمسين جنيهاً من جيبه وأعطاها لها كمكافأة على حسن تصميمها، لكن مي قامت بشراء أقلام ملونةٍ بعدد طلاب وطالبات صفنا، ووزعتها علينا ولم تأخذ إلا قلماً واحداً مثلنا، وهي تقول: أنتم شركائي في هذه الجائزة.

ثم نظر مدير الإدارة إلى أرضية الفصل وعندما وجد التبن الملوَّن بكل ألوان الطيف يغطيها، أشاد بالنظافة، وبفكرة الاستعانة بالتبن الملون وبالمواد المحلية في تجميل الفصل، ثم همس في أذن صاحبيه وابتسم وقال: أنتم أفضل فصل، فقفزنا في الهواء حتى كادت رؤوسنا تلامس مراوح السقف، وباركنا للأستاذة بدرية وباركت لنا وهي توشك تبكي من شدة الفرح، ثم طلبت منّا أن نجلس في أماكننا، وأن نصمت ونصغي لها كي تكمل لنا رواية (ضي)، وتخبرنا بما حدث لشلّع

وبدون أن تُخرج أوراقاً، بدأت تحكي لنا وتقول وكأنها تصف حلماً جميلاً: وُلدت شلع ولداً جميلاً، لم تذهب كعادة معظم نساء قريتنا في السنوات الأخيرة إلى مستشفى أو عيادة لتلد فيها؛ نظراً لعدم وجود المال معها، إنما جاءت أمها وساعدتها حتى ولدت في ركن حجرتها ـ في نفس المكان التي ولدت فيه غربة ـ ولداً جميلاً.

لم يعد فراج من السفر ولم يرسل لها خطاباً يسمّي فيه مولوده الجديد أو يبارك فيه لها أو يحمد الله على سلامتها وسلامة ولده، نظرت في حالها، إنها مثل شجرة سنط وحيدة في الصحراء وعليها أن تتأقلم مع الجفاف والرياح والشمس الحارقة، فكّرت ووجدت أن أفضل اسم يناسب مولودها هو أيوب، نعم أيوب كي يصبر ويتحمّل معها وينقلها من العوز إلى النعيم.

اهتمت شلع بأيوب، جعلته أباها وأخاها وزوجها وولدها ولم تهمل بسمة حياتها غربة، ولم تشعرهما بفقرها ولا بغياب أبيهما، كانت لهما الأم الحنون والأب المسؤول في وقت واحد رغم صعوبة ذلك على المرأة الرقيقة، لكنها المواقف الصعبة التي تضع الناس في أماكن لم يتخيلوا أن يكونوا فيها.

ظلت شلع المسكينة تزرع الفجل والجرجير والملوخية في بيتها، وتبيعهم سراً لبعض أهل البلد القادرين والمتعاطفين معها، وظلت تصنع الطوب الأخضر وتبيعه أيضاً في السر، وظلت تشتري البيض المخصّب وتضعه تحت الدجاجة، وبعد خمسة وعشرين يوماً يفقس البيض، فتعتني

بالكتاكيت الصغيرة حتى تصير دجاجاً يبيض هو الآخر، فتبيع بيضه، ومثلما كانت تفعل مع الدجاجة كانت تفعل مع الإوزة والبطة، وهكذا حتى وفّرت ثمن ماكينة خياطة سنجر، اشترت الماكينة ودخلت بها البيت، ثم صلت ركعتين شكراً لله، وهي غير مُصدقة إنها امتلاكها ماكينة خياطة.

انكفأت على الماكينة، وظلت تحيك الملابس وتتلذذ بدمج الألوان وتصنع من قطع القماش أثواباً وفساتين رائعة، مستغلة حبها للألوان وعلاقتها القوية بها، كانت تركب خيول حلمها وتخطو على مرارة واقعها، كانت تخيط الملابس وكأنها ترسم، تصنع ثوباً وتأخذ عشرة جنيهات، توسّع فستاناً وتأخذ خمس جنيهات، تضيّق عباءة وتأخذ خمسة، تصنع قمصاناً داخلية ملونة جميلة وتأخذ خمس جنيهات، كل هذا وعينها على غربة وأيوب.

كانت روحها تتعلّق بزوج سافر منذ سنين ولم يرسل خطاباً يطمئنهم عليه، ولم يرسل مالاً يعيشون منه، هرب من آلام الواقع ومرارته وعاش الحلم في بغداد، يقول العائدون من العراق: إنه يعيش لملذاته فقط، ولا يغار من الرجال النشيطين الذين سافروا معه، لا شلع ولا غربة ولا أيوب إنما يشتري ملابس أنيقة وزيوت شعر وعطوراً مستوردة، وينفق ما تبقى على ملذاته ليثبت للآخرين كرمه وكرم أهل الصعيد في بلاد البغددة، كان كل هذا الكلام يعكّر دم شلع التي تعتبره تجريحاً لكرامتها وإهانة لمشاعرها.

تقول شلع لنفسها: إن الصبر ليس اختياراً وإنما هو أمرٌ إجباري وتستمر في تربية غربة وأيوب حتى يدخلا المدرسة ويتفوّقا فيها، فتفرح بهما وتقرّر أن ترعاهما حتى يكملا دراستهما الجامعية، تظل تعمل طوال النهار والليل، ترعى طيورها وتنكفئ على ماكينة الخياطة وتغالب الزمن وترمي خلف ظهرها الأخبار المؤلمة التي تأتيها من العراق، حتى تنجح غربة في الثانوية العامة، وتدخل كلية التمريض التي تضمن من تدخلها وظيفةً راتبها جميل!

تتفوّق غربة في كليتها، وينجح أيوب في الثانوية العامة، ويدخل كلية التجارة ويتفوق فيها، وما هي إلا سنوات حتى يتخرجا من الجامعة، لقد شربت شلع الأمرّين، وتحمَّلت ما عجز زوجها عن حمله، وذاقت مرارة الفقر والوحدة، لكنها تفرح؛ لأنها رغم قسوة الظروف نجحت في تعليم بنتها وولدها تعليماً عالياً!

تعمل غربة فور تخرجها مباشرة ممرضة في مستشفى القصر العيني بأسيوط، وتتقاضى ماهية معقولة أول شهرٍ، وتجري نحو محل مجوهراتٍ جميلٍ في شارع يسري راغب، تشتري لأمها خاتماً ذهبياً كبيراً، تدمع عيون شلع عندما تلبس الخاتم، تتذكّر ذهبها الذي باعته كي يسافر به فراج ولم يعوضها عنه، تحمد شلع ربها وتقبل غربة وتشكرها؛ لأنها قدّرت تعب أمها، تبتسم غربة، وتقول لأمها في خجل بكر: إن طبيباً يعمل معها يريد أن يتقدّم لخطبتها، تفرح شلع لكنها تطلب من غربة أن تنتظر بعض الوقت حتى تجهّز نفسها، فالأب هائمٌ خلف ملذاته في

بغداد، وهي هدّها الفقر وتكاليف تعليمهما، تقول غربة: إن زميلها هذا لا يريد منهم شيئاً غيرها، وإنه سيسافر إلى المملكة العربية السعودية ليعمل طبيباً هناك وإنه سيأخذها معه بعد أن وفّر لها عقد عملٍ تتقاضى من خلاله ما يزيد عن العشرين ألف جنيهٍ، توافق شلع وتطلب منها أن يتوسّط خطيبها ويوفّر فرصة عمل لأيوب في السعودية، تبتسم غربة، وتقول لها: إنها كلمته بالفعل ووعدها بتلبية طلبها، تفرح شلع ويتأكد لها: إنها استثمرت عمرها في المكان الصائب حيث بنتها غربة وولدها أيوب، فتصلي شكراً لله، وتبدأ في تجهيز غربة وهي توشك تطير من شدة الفرح.

تمر الشهور والسنون، وشلع وحيدة في منزلها البسيط تحت الجبل الشرقي، وقلبها الأبيض يشتاق للغائبين والمشتتين في بلاد الله، تخاف المسكينة أن يخذلها أيوب وغربة كما خذلها زوجها فراج، لقد سبّب استهتار فراج لها جروحاً بالغة، ولا تريد أن يقع ولدها وبنتها في نفس المستنقع الذي وقع فيه زوجها، لكن ما هي إلا شهور قليلة، وتنهال عليها الأموال الكثيرة والملابس الملونة الثمينة والعطور الفواحة؛ مرة يرسل أيوب، ومرات ترسل غربة، وهي تستقبل هذه الأموال في سعادة بالغة، تقول: ولدي أيوب أرسل لي كذا، وبنتي غربة أرسلت لي كذا وكذا، يطلب منها الناس أن تكتم ذلك خوفاً من الحسد، لكنها كانت تريد أن تعالج عجز فراج بروعة أيوب وغربة!

تدَّخر شلع الأموال التي أرسلها لها أيوب وغربة كلها، وتنفق على

نفسها من عرقها وتعبها، وهكذا حتى تشتعل الحرب الملعونة في بلاد الحضارة والبغددة والفن والجمال مرة أخرى، ويعود فراج من العراق منكسراً حزيناً محطَّماً، أو هذا ما تعمد أن يبدو عليه أمامها، يعود بخفَّي حُنين، لا وراءه ولا أمامه، يعود ليجد الدنيا كلها تسخر منه ومن شبابه الذي ضاع هباءً منثوراً، أخواته البنات يلمنه على استهتاره، الأقارب يضحكون على حكاياته المتكررة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، الكل يهزأ به وبعمره الذي ذهب مع الريح، الكل ينظر صوبه بشفقة وربما سخرية إلا شلع التي تستقبله مبتسمة، وتحتويه في نبل أولاد الأصول، وتعالج ما به من أوجاع وآلام وخيبات، لا تفتخر بما صنعت، ولا تعذّبه على كل ما أهدر، تبتسم له، وتربت على كتفيه، وتخفّف عنه حسراته وندمه وجلده لذاته، وتقول له: إن الحياة أمامه ما زالت طويلة، وإنه ما يزال قادراً على تحقيق كل أحلامه! فهل يستغل فراج الفرصة الأخيرة التي منحتها له، أم أن الطبع غلّاب وذيل الكلب لا يستقيم؟

تتوقّف الأستاذة بدرية عن السرد، تجلس وتجفّف عرقها الذي بدت حباته على وجهها مثل حبّة ندى فوق زهرة رمّان، تشرب جرعة ماء، نصفّق لها بحرارة، يقف عرفات ويقول لها: إنها تستحق لقب نجيب محفوظ عن جدارة، ويسألها أحمد كيف تمكّنت من حفظ كل ما قامت بسرده، فتبتسم وتشكره على ملحوظته الذكية هذه، ويقول حمكشة: إن فراجاً هذا رجل سيئ، وتقول أمنية: إن شلع امرأة أصيلة ويجب أن نقتدي بها، وتقول مي: إنها ترفض الضعف الذي تتصف به شلّع، ثم

تصمت لحظة، وتقول: إنها لو كانت مكان شلع لكانت رفضت الزواج من فراج وكانت اختارت الموت مثل عمتها كريمة فالموت مرة واحدة أفضل من الموت آلاف المرات، وترد غادة قائلة: إن شلع ليست ضعيفة، إنما صابرة على ما ابتليت به، ثم تصمت وتقول في حكمة: مَنْ رأى غير الذي سمع، وتبتسم الأستاذة بدرية وتقول وهي تخطو خارجة: إنني أحكي لكم حكاية شلّع كي نتعلم منها كلنا؛ نأخذ الأشياء الإيجابية ونطبقها على أنفسنا، ونبتعد عن الأشياء السلبية ونتفاداها.

تؤثر هذه الجملة فينا تأثيراً شديداً، ننظر لبعضنا، يقول أحمد في استفهام: ماذا قصدت الأستاذة بدرية من قولها هذا؟ أقف وأقول لهم: إنها قصدت أن تعلّمنا عدم اليأس وأن الإنسان القوي قويٌ بعزيمته، فشلّع مثلاً تخلّى عنها الجميعُ وقست عليها الدنيا لكنها دفعت ثمن شجاعتها وفي النهاية نجحت وانهالت عليها الأموال الطائلة، وما لم تحقّقه هي حققته بنتها غربة، تقول سوسن: ماذا تقصدين؟ أقول لها: إن الأستاذة بدرية حكت لنا حكاية انتصار شلع اليوم كي نقتدي بها، ونفوز غداً بالكأس، يهتف أحمد في حماس: سنفوز، ويردد الجميع خلفه: سنفوز.

ينتهي اليوم الدراسي، وأرجع أنا وغادة إلى البيت، نمر على عم فتحي بائع الخضار، يقول لنا ولده الصغير: أهلاً يا دكتورة عوافي، أهلاً يا دكتورة غادة، نخجل ونمشي بسرعة ثم نضحك ونحن لا نصدّق ما نرى وما نسمع، أقول لغادة: إننا أصبحنا مشهورتين، فتومئ برأسها ولا

ترد، أحدّثها عن اللغة الجميلة التي تكتب بها الأستاذة بدرية فتبلع ريقها، أحدّثها عن التشويق في الرواية ولا ترد عليّ، أتكلم عن شلّع وعن كل ما قاسته طيلة حياتها بسبب عدم الرفض يوم عرض عليها أبوها الزواج من فراج وتقول: الشجاع يموت مرة واحدة والجبان يموت ألف مرة! أقول لها: إن شلع تجاوزت الصعاب وبدأت تجني ثمار صبرها، وتقول: إن فراجاً لن يتركها تهنأ، أقول لها: كيف؟ تقول: إنه سيأخذ منها كل الأموال التي ادّخرتها، وسيسرق منها نجاحها وينسبه لنفسه، أقول لها: إنك تكرهين شلّع، تقول: إنني أكره ضعفها الذي يشبه ضعفي، أقول لها: إنكِ توحّدتِ مع شلّع، وصرتِ أنتِ هي وهي أنتِ، فتقول: إنها لن تقبل أبداً أن تكون شلع أخرى، وإنها سترفض الزواج من ابن عمها حتى لو فطّسوها، وتقول أيضًا:

إنها سوف تصبح طبيبة، وسوف تحقّق حلمها مهما اعترض طريقها من صعوبات، ثم تتركني وتخطو مسرعة نحو بيتها، أصيح: انتظري يا غادة، مهلاً يا صديقتي، لكنها تُسرع وهي تأكل الرمال والتراب أكلاً، وقدماها يثيران الغبار خلفها حتى يَحُول الغبار بيني وبين رؤيتها! أستمر في المشي، يزورني طيف الأستاذة بدرية وهي تحكي من ذاكرتها:

تقول شلع لنفسها: إن الصبر ليس اختياراً، وإنما هو أمرٌ إجباري! أبتسم لهذه الجملة البديعة التي تشع حكمة وأعود إلى بيتنا وصورة شلع وهي تحيك الملابس وتصنع الفساتين الملونة مقابل جنيهات قليلة تسيطر على عقلي، وصورتها وهي تصنع الطوب اللبن وتبيعه سراً تملأ عقلي،

وصورتها وهي تربّي الإوز والبط والدجاج وتعيش منه تحاصرني وتدعوني إلى الاقتداء بها، لكن أقول لنفسي: إن لديَّ الحمام والدجاج الذي يوفر لي كل ما أحتاجه، وفي إجازة العطلة الصيفية سوف أطوّر مشروعاتي، أما الآن فلا بد من المذاكرة والاجتهاد والتفوق؛ كي أحتفظ بلقبي الذي حلمت به وأقرّته الأستاذة بدرية؛ وكي يقول لي الجميع في الذهاب والإياب: أهلاً يا دكتورة عوافي، وكي ينسوا حذائي البلاستيكي وقميصي القديم وبلوزتي المتهالكة وجيبتي البالية.

بعد أن أنهي مذاكرتي وأذهب إلى النوم أجد نفسي أقارن بين ظروفي وظروف شلع، أجد ظروفي أفضل منها بكثير، وأقول لنفسي: إن تحقيق حلمي مقارنة بما فعلته أمر هين وأشحذ همتي وأقوّي عزيمتي وأقرّر المضي قدماً نحو هدفي أمامي، الأستاذة بدرية وخلف ظهري أبي.

في صباح اليوم التالي تأتي الوفود من غالبية مدارس الإدارة، كل وفدٍ يقوده معلمٌ أو معلمةٌ، وكل وفدٍ يجد المكان المخصّص له في فناء المدرسة، لقد قام أحمد وفريقه بكل ذلك بعد انتهاء اليوم الدراسي بالأمس.

يأتي مدير الإدارة ووكيل إدارة البداري التعليمية ومدير التعليم الثانوي بمديرية أسيوط التعليمية ويستقبلهم مدير المدرسة والمعلمون والمعلمات إلا الأستاذة بدرية التي كانت مشغولة بتجهيز مكبرات الصوت مع أحمد، تجلس اللجنة على المنصة، وتبدأ الوفود من مدارس الإدارة في التنافس، نستمتع بأصوات رائعة في قراءة القرآن الكريم،

وتزداد المنافسة عندما نسمع التواشيح الدينية، ثم تزداد المنافسة عندما يلقي الطلاب قصائد رائعة لأمير الشعراء أحمد شوقي، ولشاعر النيل حافظ إبراهيم، ولشاعر اليمن السعيد الباردوني، وفاروق جويدة، ونزار قباني، والسياب، ومحمود درويش، ونازك الملائكة! استمعنا واستمتعنا بأشعار لم نذق لذتها من قبل، وزاد انجذابنا للمتنافسين المتميزين من كافة المدارس وكنت كلما انجذبت أكثر أرى الأستاذ حسُّوب والأستاذ حسام ينظران في ساعتهما بقلق شديد ويزداد الغضب على وجههما حتّى مال الأستاذ حسُّوب على الأستاذ حسين وأخبره بأن حصة الدرس الخصوصي التي يعطيها لطلاب الصف الثالث علمي قد ضاعت بسبب هؤلاء المجانين على حد قوله، ويرد عليه الأستاذ حسين وهو يمسح لعابه الذي سال على صدره بأن الحال من بعضه، ثم يحدّثه عن ضياع حصة الصف الأول الثانوي التي يأخذونها في الدرس الخصوصي، يغضب الأستاذ حسُّوب ويسب الأستاذة بدرية التي على حد قوله نشرت الفوضى في المدرسة، وقطعت رزقهما، وتسبَّبت في إرهاقهما عندما جلبت هذا الهراء وذلك الجنون إلى المدرسة!

أجلس في مكاني، أحذر عصا الأستاذ حسُّوب المباغتة الموجعة، فأنا منذ دخلت المدرسة وتحديداً في ثاني أسبوع وقتها كنا راجعين من الفسحة إلى الفصول وفجأة قام بضربنا بالعصا بقسوة وجاءت العصا في ظهري وشعرت بنار تكوي جسمي لأكثر من نصف ساعة ومن يومها وأنا أحذره، وأبتعد عنه وعن عصاه الثقيلة ولسانه الطويل، لقد باتت

رؤيته تسبب القشعريرة لجلدي والطقطقة لشعر رأسي! أتابع بشغف فترة التقليد التي بدأت، أضحك من كل قلبي مع هذا الشاب الذي يقلّد الحيوانات والطيور في براعة، ثم أتعجّب من مقدرة طالب آخر يقلد مذيعي مباريات كرة القدم، ثم أنجذب لعرفات الذي صعد المنصة وببشرته السمراء وابتسامته الساحرة بدأ في تقليد فنانات مصريات معاصرات، مثل: نيلي كريم، ومنة شلبي، وغادة عادل، وغادة عبد الرازق، لقد برع عرفات في تقليدهن ونجح في إضحاك كل أعضاء لجنة التحكيم لدرجة أن مدير إدارة البداري التعليمية ظل يضحك حتى انقلب الضحك إلى كحة متواصلة! ولولا أنه شرب بعض الماء بسرعة وضربه وكيل الإدارة أعلى ظهره مازحاً لكان أول ضحايا ظرف عرفات الذي صفق له الجميع على براعته واعترفوا له بالسبق، ثم كانت المفاجأة الأجمل عندما صعدت الصيدلانية أمنية وألقت التحية باللغة الإنجليزية، ورحّبت بالضيوف باللغة الإنجليزية ثم ابتسمت وقالت بإنجليزيتها الجميلة: إن الفقرة القادمة هي مسرحية كوميدية عن قصة اللغة الإنجليزية المقررة على الصف الثاني الثانوي، أعدّها للمسرح الأستاذة بدرية، والإضاءة للطالبة سوسن عبد الحكيم، والملابس والإكسسوارات للطالبة غادة عادل، ويجسّد الشخصيات حمكشة وعرفات ومي، والإخراج لأحمد يونس، وينطلق الممثلون يمثلون ببراعة، يُضْحِكُون الجميع، وينشرون البهجة والقيم الإنسانية الجميلة.

بعد نصف ساعة من المتعة والجمال والفكر يُسدل الستار وتنتهي

المسابقة ويعلن معالي مدير عام التعليم الثانوي فوز مدرستنا بالكأس وينادي كل واحد منا بلقبه ليتقدّم ويأخذ شهادة تقدير وهدية عينية، يقول مثلاً: حضرة الضابط أحمد يونس، الدكتورة عوافي، وهكذا حتى يتم تكريمنا جميعاً، ثم يمدح الأستاذة بدرية التي على حد قوله: صنعت من الفسيخ شربتاً وحوّلت الطلبة الذين كانوا يهربون من المدرسة، ويُطردون من الحصص، وتصدر لهم قرارات فصل، ويزوّرون توقيعات أولياء الأمور، ويأخذون دوائر حمراء في معظم المواد إلى طلبة متفوّقين ومبدعين، نصفّق بحرارة ويصفق الجميع مثلنا وتزغرد بعض البنات تقديراً ومحبة للأستاذة بدرية التي جعلتنا نحلم وجعلتنا نعيش بهجة الحلم وجعلتنا ندافع عن أحلامنا، ونحب بعضنا ومدرستنا ودروسنا، ونفرح ونستمتع بألقابنا وبما صنعناه، وتبتسم الأستاذة بدرية من قلبها وتُكمل لنا حكاية شلّع، تقول:

زادت بشاشة وجه شلع وزادت ضحكتها تلقائية، صارت أكثر حباً وتعلقاً بالحياة بعد أن تخلصت من قلقها وخوفها، تمسك طرف الثوب القطيفة الناعم الملون وتتحدّث عن بنتها غربة والأموال التي ترسلها والدور الفريد الذي تلعبه مع نساء وأطفال السعودية وحبهن لها، تمد يدها للنسوة وتبرز الخواتم الذهبية وتتحدّث عن حب أيوب لها وراتبه الكبير وعمله مع أميرٍ سعودي له مكانةٌ عظيمة عند جلالة الملك وولي عهده، وعن صبرها وتحملها، تقول: إنها عاشت أياماً كثيرة لم تجد ما تأكله؛ كانت لا تجد كسرة الخبز، ولا تملك إلا ثوباً واحداً تغسله

بالليل لتلبسه بالنهار، وفي الشتاء لا يجف فتلبسه مبلولاً، تبتسم وهي لا تصدّق أن هذه الأيام الثقيلة مرت بسلام، ثم تقبّل يدها باطنها وكفها وتشكر الله الذي وقف بجانبها.

لكن فرّاجاً لم يتركها وشأنها واستكثر عليها المال، وذات مساءٍ جاء ليأمرها بأن تحضر له هذا المال الذي أرسله ولده أيوب وبنته غربة على حد قوله، ويعلل ذلك بأن الولد وما يملك ملك لأبيه، تسأله ماذا يريد أن يفعل بمال أولادها؟ ويجيب بأنه رجل البيت ومن حقه أن يمسك لجام الأمور، تقول له في ندم: إنه ترك لجام الأمور منذ تزوّجها ثم تصمت لحظة وتقول له: إنها لن تتركه يضيّع عرق ولدها وبنتها بعد العناء الذي عانته، يصبح ناعماً كالثعبان ويقول لها: إن الظروف لم تكن في صالحه، ويقترب منها ويتودّد لها ويغازلها، ثم يطلب منها هذه الأموال ويعدها بالحفاظ عليها، تقول له: لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين!

يظل يحوم حولها مثل ثعلبٍ يحوم حول دجاجة، يتودّد ويبتسم ويغازل ويعد ويُمنّي، وهي تقول له: إنها لن تضيّع أموال ولدها وبنتها وكي لا تخسره توفّر له مطالبه البسيطة؛ مرةً تشتري له قطعتي قماش جديدتين، ومرةً تشتري له شالاً أبيض وحذاء جلدياً وعصا أنيقة، ومرةً تشتري له بعض السراويل، ومرة تعطيه نقوداً يضعها في جيبه وينفق منها عندما يذهب إلى المقهى أو السوق أو الجزار، ورغم ذلك يلح ويطلب النقود كلها بحجة أنه رجل البيت!

يرسل أيوب لأمه شلع رسالة وبعد أن يسلّم عليها، ويبثها أشواقه

يطلب منها بناء البيت بالمسلّح، ويخبرها بأنه سيأخذ إجازة ويعود بعد شهرين، وبسرعة تطلب من فراج حفر أساسات البيت، وتعطيه الأموال اللازمة لشراء الحديد والأسمنت والظلط والرمل وأجور النجَّارين والحدّادين، وفي تباهٍ وافتخار يبدأ في بناء بيتٍ يشبه القصر رسمته له شلع على التراب وطلبت منه أن يجعل حلمها حقيقة، وكلما احتاج إلى نقود ليدفع ثمن شيءٍ من الخامات المستخدمة أو أجراً من الأجور المطلوبة تعطيه له، ثم يجلس أمام البيت يدخّن الشيشة كعمدةٍ، ويحكي للعمال البسطاء عن الأموال الطائلة التي جلبها من العراق والنعيم الذي جعل زوجته شلع تعيش فيه، لقد ظل يكذب على نفسه وعلى العمال وعلى أهل البلد حتى صدّق كل ما كان يقوله، وذات يوم طبخت شلع وعجنت وخبزت ورقّت وحمّرت وطشّت للعمال الذين يرمون خرسانة السطح، ثم خرجت لتقدّم لهم الغداء، وإذ بها تسمع زوجها يتحدّث عن الأموال التي لا تحصى التي جلبها من العراق والنعيم الذي وفرّه لزوجته شلع، ثم يصمت لحظة ويقول: إن كل هذه الأموال التي يبني بها هذا البيت هي دولارات ادّخرها منذ كان مسافراً في العراق، تمتعض شلع وتشعر باضطراب شديد في بطنها وبالنار تأكل رأسها وتوشك تفضحه وتقول له وللناس: إنه لم يرسل لها دولاراً واحداً، وإنه تركها وحيدة وسط الأهوال، وإن هذه الأموال هي أموال أيوب وغربة، لكنها تتحكم في نفسها وتقرّر عدم جرح كبريائِهِ أمام الرجال، وتبلع غيظها، وتضع صينية الطعام بينهم وتدخل وهي تبكي وتلعن هذا الزوج الذي يصرّ على سرقة تعبها أكثر من عشرين سنة!

تبكي شلع، يضحك فراج، يحكي في افتخار عن مجده المزعوم، لكن الناس تسايره وهو ينظر صوبها حتى إذا أعطاهم ظهره أقروا بأن الفضل كله يعود إلى شلع التي صبرت على غربته وفقره وطيشه وتحمّلت الجوع والعري وحرق الدم، وحرمت نفسها من كل ما كانت تشتهيه وبنت بنتها غربة وولدها أيوب، بنتها وهي تراهن على أن بناء البشر أفضل من بناء الحجر، بنتها وهي تقول: ما أعجز عن تحقيقه يحققه أولادي، بنتها وبعد سنوات من العذاب المتواصل أثمر بنيانها، لكن زوجها المستهتر الذي ضيّع أجمل سنين عمره لاهياً يريد أن يسرق منها هذا المجد، لهذا تبكي شلع، وتشيط رأسها من الغيظ!

كانت المسافة بين الواقع والحلم قد قصرت وكنا بدأنا نشعر بأن لذة الحلم أزاحت شيئاً من مرارة اليأس، وكانت الأستاذة بدرية نجحت في أن تجعل شلع واحدة منّا، نتعذب معها وتقشعر أبداننا لها، وها نحن بدأنا نفرح لها ونوليها اهتماماً أكبر، ونبحث عنها بين نسوة القرية.

إن بعض ما قالته الأستاذة بدرية ينطبق على جارتنا الحاجة شلع ومعظم صفات جارنا الحاج فراج موجودة في شخصية فراج التي كتبتها الأستاذة بدرية، لقد امتزج الخيالي بالواقعي وذابت الفواصل بينهما؛ لهذا قررت كي أقلّل نسبة الفضول فيَّ وأقلّل من بحثي عن شلع بين الناس أن أتعامل مع ما تقوله الأستاذة بدرية على أنه قصة خيالية يجب أن أتعلم منها شيئاً.

تعود الأستاذة بدرية إلى البيت، تخبرها أمها العجوز وهي تسعل

وتكح بأن الخالة شلع جاءت إلى بيتهم وطلبت مقابلتها، وقالت لأمها في لوم: إنها اتصلت بالأستاذة بدرية على تليفونها المحمول أربع مرات لكنها لم ترد، تسأل الأستاذة بدرية أمها: ألم تقل لك ماذا تريد؟ وتقول الأم: لا، تسألها: ألم تترك رقم تليفون ييسّر الاتصال بها؟ تقول: لا، تفكر الأستاذة بدرية، وتسأل نفسها: ماذا تريد مني الخالة شلع؟ ولماذا تتصّل بي؟ ولماذا تأتي بنفسها وهي قد تجاوزت الخمسين من عمرها وقد انحنى ظهرها وضعف نظرها وشحب لونها وارتعشت يداها؟ لماذا تبحث عني بهذا الشكل؟ تسأل الأستاذة بدرية نفسها وعندما لا تعثر على إجابة تقرّر الذهاب إليها في بيتها.

نضع أيدينا على أفواهنا، ننظر في دهشة إلى الأستاذة بدرية، تضحك وتقول: إن روايتها متعبة، نبتسم في وقت واحد ونصفق لها، أقول: إنها رواية شيّقة، وتطلب منها غادة استكمالها لكن تقترب امتحانات نهاية العام الدراسي، وننشغل بالمذاكرة كي نحافظ على تفوقنا العلمي.

أنجح بتفوق كالعادة، وينجح إخوتي وزملائي، تتلقفني زوجة أبي وتؤكد ما تعلمته في الصيف الماضي من مهارات منزلية كالعجين والتقطيع والتقريص و... تقول: إنني كبرت ولا يصح أن أخرج من تحت يديها بدون اتقان هذه المهارات، خاصة أن بنات كثيرات في مثل سني تزوّجن وأنجبن على حد قولها، أما أبي فيستيقظ كعادته مع الفجر ويأخذني أنا وإخوتي الذكور إلى الحقل نوقّع عيدان الذرة، ونقطع

القناديل، ونقشّر الذرة الشامية المرصوصة بعناية كأسنان فتاة إنجليزية تعتني بنفسها، ثم نضع المحصول في أجولة من البلاستيك فوق ظهور الحمير ونعود بها إلى البيت؛ كي يجفّفها صهد الشمس!

كنت في وقت الظهيرة ونحن نهرب من صهد الشمس الحارقة ونحتمي بظلال النخيل والنبق والمانجو، أقارن بين حال أبي وحال العائدين من دول الخليج أو ليبيا، فهم عائدون بالملابس الجديدة والأجهزة الجديدة والدولارات الكثيرة بينما أبي يحيط به العرق الكثير والمال القليل وقسوة المعيشة، كنت أقارن بين تنعّم أولادهم وبناتهم وبين فقرنا، بين بيوتهم المسلحة العالية وبيتنا البسيط الذي بالكاد يسمى بيتاً، بين الأجهزة الكهربائية الحديثة التي في بيوتهم وبين تليفزيون فيلكس صغير أبيض وأسود ليس معنا غيره، وظللت هكذا أقارن كلما رأيت واحداً من أبناء هؤلاء أو رأيت بيتاً من بيوتهم أو تعرضت للإهانة على يد سكرتير المدرسة أو الأستاذ حسوّب؛ لأنني تأخرت في دفع الرسوم أو أية مبالغ مطلوبة، وكنت كلما قارنت بيننا وبين غيرنا من الذين سافروا وعادوا أشعر بالغضب، وذات يوم وكنا لم نأكل الطبيخ قرابة شهرٍ كامل حتى تيبّست أمعاؤنا وكادت تتكسّر قلت لأبي: لماذا لم تسافر إلى الخارج يا أبي؟ ابتسم وقال لي: ولماذا تريدين مني أن أسافر؟ قلت له: كي تجلب لنا المال والملابس الجديدة والأجهزة الحديثة وتبني لنا بيتنا بالمسلح، يبتسم ويربت على كتفي ويقول في حكمة: أنا أبنيكم وأنتم بعد ذلك تحققون كل هذا وأكثر، لا أفهم ردّ أبي المقتضب، لاحظ

ذلك فابتسم وفي صبر وضّح لي أنه لا يطمئن لتركي أنا وإخوتي وزوجته وحدنا، ثم بيّن لي أهمية وجوده بجوارنا وأهمية تعليمنا، وأكد أنه بعد أن ننهي تعليمنا سنفعل كل ما حلمنا به وأكثر، هززت رأسي وأنا غير مقتنعة، ثم وقفت لأعود إلى البيت كي أطعم طيوري وأسقيها.

أعود وأطمئن لعدم ضياع بعضهم أو مرض بعضهم، أغيّر لهم الماء، أقدّم لهم الحبوب والرّدة المبسوسة، أخلّص أرجلهم مما علق بها من خيوط أو فضلات، أقص الشّعر الذي كبر في أجنحتهم كي لا تطير طيوري وتتركني حزينة عليها، وهكذا أستمر شهراً ونصف الشهر حتى يبدأ الأستاذ حسُّوب والأستاذ حسام دروسهما الخصوصية في بيتهما، يبدأن ومعهم معلمو بقية المواد مبكّرين بحجة أن الوقت المتبقي لا يكفي وأن شهر رمضان المعظم سوف يأتي في منتصف مايو وهم يريدون الانتهاء من الشرح قبل الصوم!

أذهب إلى المدرسة لأقابل الأستاذة بدرية وأسألها عمّا يجب أن أفعل، وهناك أجد أمنية وغادة ومي وسوسن وأحمد وحمكشة، نخبرها بأن المعلمين قد بدأوا شرح دروسهم الخصوصية، فتبتسم وتنصحنا بأن نستمتع بعطلتنا الصيفية، وبوقت إجازتنا كاملاً، حتى إذا ما بدأت الدراسة نخلص لها وللمذاكرة دون أن يصيبنا الملل، نقول لها في حيرة: إن زملاءنا في المدارس الأخرى وبعض الزملاء من مدرستنا قد بدأوا، فتطمئننا وتنصحنا باللعب وبالاستمتاع بالإجازة حتى تبدأ الدراسة، ثم تبتسم وتحذّرنا من الاستعجال والخوف، تقول لنا: إن الشهادة الثانوية

سنة دراسية عادية مثلها مثل أي سنة، ثم تنصحنا بعدم الخوف منها وتخبرنا أنها اتفقت مع مدير المدرسة الجديد الأستاذ عبد الرحيم على وضع جدول حصص خاص بالصف الثالث الثانوي، ينفّذه معلمون يحبّهم الطلبةُ، ووافق على ذلك، يقول أحمد: إن أباه يضغط عليه كي يبدأ دروسه الخاصة؛ لأن العام غير العام على حد قوله، وتقول له الأستاذة بدرية: قل له: هذا العام لن نحتاج دروساً خصوصية، ثم تضحك وتقول له: قل لأبيك: لو معك نقود زائدة أرسلها للأستاذة بدرية التي تعاني ضآلة المُرَتَّب، وتثبيت صرف مستحقاتها المالية على أساسي 2014 وزيادة الأسعار بشكل جنوني، ثم تضحك ونضحك!

يوم السابع عشر من سبتمبر بدأت الدراسة، فوجئ الجميع بحضور طالبات وطلاب الصف الثالث الثانوي على غير العادة، اندهش الناس وتعجبوا؛ لأنهم اعتادوا منذ سنين على عدم حضور أمثالنا، وتعاملت الإدارة والمديرية ولجان المتابعة بعدم اكتراث بهذا الشأن، واكتفى المدير والمدارس والوكلاء بأن يضعوا أمام لجان المتابعة بعض طلاب الصف الأول أو الثاني ويصورون لها أنهم طلاب الصف الثالث لكن عندما رأونا ندخل المدرسة جميعاً ظل الأستاذ حسام يمسح لعابه وينظر نحو الأستاذ حسُّوب الذي يطوّح عصاه في غضب ويقول: إنها خربت بيوتنا! ويرد الأستاذ حسوب في غضب شديد، ويقول: يا واخد قوتي يا ناوي على موتي!

دخلت الأستاذة بدرية من باب المدرسة الرئيس أنيقة مبتسمة،

هرولنا نحوها، قبّلناها نحن البنات في شوق، وسلم الأولاد عليها في تقدير ومحبة، هنأناها ببداية العام الدراسي الجديد، وأشادت بحضورنا الجميل، وأكدت لنا على أن المدير الجديد أعدّ لنا جدول حصصٍ رائع سوف يغنينا عن الدروس الخصوصية التي تسبّبت في إفلاس غالبية أولياء الأمور، قلت لها: إن زملاءنا الذين يأخذون دروساً خصوصية قطعوا شوطاً كبيراً من المقرّر وانتهوا من ثلاثة فصول أو أربعة من كل مادة، ابتسمت ونصحتني بالتأني والصبر والجدّية بداية من هذه اللحظة.

وقفنا الطابور، فرحنا بأجواء الدراسة وبرائحة بعض الملابس الجديدة، لم أشعر بالنقص؛ لأنني ألبس ملابس المدرسة القديمة وارتدي حذاء بلاستيكياً، وكنت فخورة؛ لأنني منذ خرجت من البيت وكل من يقابلني كان يلقبني بالدكتورة وكنت سعيدة؛ لأنني رأيت زملائي وزميلاتي كلهم خصوصاً غادة.

سمعنا الإذاعة المدرسية وكلمات التهنئة بخصوص بداية العام قدّمها المدير الجديد، وسمعنا الأستاذ حسوب بوجهه الغاضب يوجّه تعليماته لنا بصرامة، ثم قمنا بتحية العلم وبعدها تحرّكنا إلى الفصل ومعنا الأستاذة بدرية، سرنا ملتزمين كما علّمتنا، دخلنا الفصل، قرأت الأستاذة بدرية أسماءنا من خلال القائمة وطابقتها على الموجودين، وعندما وصلت القائمة إلى آخرها عرفنا أن أربعة طلاب جدد قد انضموا إلينا سنعرف بعد انتهاء حصتي الأستاذة بدرية أنَّ إحداهما اسمها رضوى بنت قيادة تنفيذية كبيرة في مبنى المحافظة، والثانية اسمها

نرمين وهي بنت يبدو على ملامحها أنها بنت باشا من الباشاوات، وشادي ابن أحد المذيعين والمذيعات لأشهر البرامج التليفزيونية التي ترفع شعار محاربة الفساد، ولؤي ابن عضو مجلس نواب عن دائرة شرق مدينة نصر بالقاهرة، يقول أحمد في ضيق: إنهم خالفوا القانون الذي يمنع التحويلات وجاءوا بهم إلى مدرستنا؛ لأنها اشتهرت بانتشار الغش فيها لدرجة أن الوزارة صنفتها من ضمن أربع لجان شديدة الخطورة في امتحانات الثانوية العامة على مستوى الجمهورية، خفّف الطلاب من ضيق أحمد وقالوا له: إنهم لن يتدخلوا في خط سير اللجنة ولن يغشوا هذا العام وسوف يعتمدون على أنفسهم!

كنت أسيقظ مبكراً، أضع الحب والرّدة المعجونة وبقايا الخبز اللينة لطيوري وأغيّر لها الماء، أجمع البيض، وأتوضأ وأصلي، ثم آخذ كسرة خبز وأغمّسها بالشاي أو الجبنة القريش، وأذاكر ساعة أو ساعتين حيث رذاذ الندى وحتى يستيقظ أبي وإخوتي، يتوضَّؤون ويصلون ويفطرون ثم نهرول كالنحل إلى المدرسة، كنت مثل إسفنجة جافة وضعوها في الماء، كنت أشرب العلم شرباً خاصة أن أسعار حصص الدروس الخصوصية مرتفعة للغاية، حمدت الله على أنه وضع في طريقي هذا العام الأستاذة بدرية والمدير الجديد الذي أرى أنه أرحم من عمي المدير السابق وأكثر حزماً منه وأكثر تفهماً واستيعاباً لكل جديد، كنت أفهم بسرعة وأضحك مع عرفات الذي لم يتوقف عن إضحاكنا حتى ونحن نعاني من سوء فهم بعض الدروس، وكنت شغوفة لرؤية زملائنا أولاد

الأكابر رضوى ونرمين وشادي ولؤي الذين سجّلهم أباؤهم ضمن صفنا لكنهم لم يأتوا ليرونا أو يتعلموا مثلنا، يقول أحمد وأمنية: إنهما يقابلونهم في مدينة البداري وهم يتلقون بعض الدروس الخصوصية في السنتر التعليمي هناك، ويسهبان في وصفهم، تتحدث أمنية عن دلع ورقي وثراء نرمين ورضوى، ويتحدث أحمد عن طيش وفجور شادي ولؤي، كنت أستمتع بشرح الأستاذة بدرية التي عندما كثرت عليها الأسئلة مثل: كيف حال شلّع؟ ماذا حدث لشلّع؟ ماذا كانت شلع تريد منكِ؟ هل ذهبتِ إلى بيت شلع؟ أين يوجد بيتها؟ مَنْ هي؟ هل توقفتِ عن الكتابة؟ وعندما لاحظت انتظامنا والتزامنا قرّرت أن تكافأنا على ذلك وبسرعة أخرجت ثلاث ورقاتٍ من حقيبتها الأنيقة وبدأت تقرأ:

كنت مشغولة جداً، أسافر قرابة السبعين كيلو متراً إلى أسيوط كي أشارك في تقدير درجات اللغة الإنجليزية للصف الثالث الإعدادي، كنت أترك طفلي الصغير مع حماتي، ولا أدري من منهما سيعول الآخر، فهي عجوز مريضة، وهو صغير لا يهدأ؟ حاولت الاعتذار ورفضوا، ذهبت مجبرة ستة أيام إلى مدينة أسيوط، كنت أسافر قرابة الساعتين، أصحّح قرابة سبع ساعات ثم أعود في أكثر من ساعتين وبعد ثلاثة أشهر أو أكثر صرفوا لي قرابة المائة وعشرين جنيهاً أجر تصحيح آلاف الأوراق في حوالي أربعين ساعة غير الساعات التي تجاوزت العشرين التي كانت تضيع في السفر والانتقال، المهم انتهيت من التصحيح، وفي اليوم التالي ذهبت لزيارة شلع كي أعرف ماذا تريد منّي!

لقد صار الشارع التي تسكن فيه كله أشجاراً وظلالاً وزهوراً وعصافير، لقد زرعت هذه الأشجار أيام كانت تجلب الماء على رأسها من المشربية الوحيدة أقصى قريتنا من جهة الغرب، ظل الشارع جميلاً بفضل عنايتها، وظل واسعاً ومنظماً، تقدّمتُ في الشارع وأنا سعيدة حتى وصلت آخره وهناك سألت بعض الصغار الذين يلعبون الكرة حفاة عن بيت الخالة شلع وأشاروا ناحية بيت جميل واسع يشبه القصر، له سور وتحفّه أشجارُ الزينة من الغرب والشمال، مكون من طابقين، أعجبني شكل البيت وألوانه البيضاء والزرقاء والبني الجميلة، تذكّرت حبها للألوان وأعجبني حرصها على تطبيق هذا على أرض الواقع، ابتسمت ثم طرقت الباب طرقات منتظمة هادئة ولم يرد عليّ أحدٌ، قلت: ربما هم جالسون في عمق البيت، ومستسلمون لرطوبة ظلال الجبل الدائمة، فدست على الجرس واستمتعت بزقزقة عصفورته، وثواني وخرجت لي الخالة شلّع بظهرٍ منحنٍ وعيون ضعفت وشيب يطل من أسفل الطرحة، خرجت وهي تتوكّأ على عصا من جريد النخل اليابس، لم تصدّق أنها تراني، ولم تصدّق أنني جبرت بخاطرها، قبّلت يدي وخدودي وضمتني وهي تقول: هل يعقل أن الخالة شلع تبحث عن بنتها بدرية وبنتها لا تسأل فيها؟ أعتذر لها وأخبرها بضرورة ذهابي للتصحيح أسبوعاً كاملاً، تتقبّل عذري وتسامحني وتحثني على الصبر، ثم تبتسم وتقول في حكمة: ربنا يكرم الإنسان بقدر تعبه، وبسرعة تمسك يدي وتشدني نحو الداخل، تجلس في دكّتها الخشبية وتطلب منّي الجلوس بجوارها، ترحّب بي

وتشكرني على تلبية دعوتها، ثم تستند على عصاها وتقف وتخطو نحو الداخل وهي تقول: إنها ستصنع لي ولها كوبي شاي بالحليب وتقول: إنه مشروبها المفضل، بعد دقائق شغلت نفسي فيها بالفرجة على ديكورات البيت الجميلة تعود الخالة شلع بكوبي الشاي بالحليب وبعض شرائح الفايش وبعض البسكويت البلدي التي تقول: إنها صنعته بنفسها، نشرب ونغمس الفايش والبسكويت في الشاي بالحليب، ثم تأخذني لتفرّجني على البيت؛ نرى المندرة الواسعة الكبيرة المدهونة بالزيت والمفروشة بالصوف والتي يغطي أرضها أجود أنواع السيراميك، ألاحظ أن صورة زوجها الحاج فراج تتوسّط المندرة، أسألها عن صورتها وتقول: صور الحريم لا توضع في منادر الرجال.

تضحك وأضحك، ثم تأخذني إلى الشقة التي تجهّزها لولدها أيوب وتحدثني عن الأموال التي دفعتها في بنائها وتشطيبها وفرشها، ثم تأخذني للداخل ناحية الحجرات الثلاثَ اللاتي بنتهن بالطين، أتأمل الحجرات الثلاثَ، ما زالت حالتهن جيدة، وما زالت ألوانهن جميلة، وللحقيقة وجدت أنهن أحن على الإنسان من الحجرات المبنية بالطوب الأحمر والحديد والخرسانة المسلحة، تدخل حجرتها، تفرش لي فراشية صوف على مصطبة طينية تقول لي: إنها غزلتها ونسجتها منذ أكثر من خمسة عشر عامٍ بنفسها، نجلس على الأرض، تتلفت حولها وعندما لا تجد أحداً تحمد الله ثم تثني على تفوقي ونبوغي ودفاعي عن حقي في التعليم والعمل، وعدم ضعفي مثلها ومثل غالبية البنات، أشكرها وقبل أن أسألها، وأقول لها: ماذا تريدين مني يا خالة؟

قالت لي بثقة العامل الذي يطلب أجره: إنها تريد منّي أن أقدّم لها في مسابقة الأم المثالية، اندهشت من غرابة طلبها لكنني قلت لها: إنها تستحق هذا اللقب بجدارة؛ لأنها حفرت في الصخر وقدّمت للمجتمع بنتاً ممرضة وولداً محاسباً، لكن جال بخاطري أن هذه المسابقة قد انحرفت عن مسارها الصحيح في السنوات الأخيرة، وتدخّلت فيها المجاملات، وتحكّم فيها بعض الفاسدين من موظفي الشؤون الاجتماعية وأوشكت الاعتراف لها بذلك، لكنني وجدت أنها بريئة وكلامي هذا سوف يضايقها، فهي تحلم بصدق بهذا اللقب، فقلت لها: لا بأس، ثم طلبت منها أن تحكي لي منذ كانت طفلة عن الأشياء الإيجابية التي قامت بها والتي تعتز بها، ووافقت وهي تبتسم ابتسامة طفلة بريئة، وفور أن بدأت تحكي سمعنا صوت وقع عصا الحاج فراج على الأرض، وسمعنا صوت خطواته وهو قادمٌ، فتوقفت عن الكلام، دخل وسلّم عليّ بحرارة وقال لي في جرأة بعض كلمات الغزل، فشعرت بالخجل أما هي فضحكت وقالت له: ابعدْ عن الأستاذة يا حاج، فيبتسم، ويقول لي وهو ينظر بعينين جريئتين: إنه لن يبتعد عني حتى أسجّل كفاحه في الحياة منذ تقدم لخطبة شلع وهي طفلة حتى شيّد هذا القصر، أنظر في عيني شلع، أجد دمعتين عزيزتين سالتا على خديها، أربت على كتفها وأخفف عنها، تقول لي في لوم: إنه يحاول سرقة حلمي علانية! يضحك ويقول: لا يصح هذا يا شلع! ثم ينظر نحوي ويبتسم ويخبرني أنه سيحكي لي مغامراته في بلاد الرافدين ويطلب منّي أن أدونها وأحكيها لأولادي في

المدرسة كي يقتدوا بها، أنظر في عيني شلّع، تنظر في عيني، نضحك في اللحظة نفسها، ثم أخرج وأنا أعدها بزيارة أخرى لا يكون الحاج فراج موجوداً فيها؛ كي أستمع إليها بتركيز دون أن يقاطعنا..

صفّقنا لها، أقرّ أحمد بضيقه من فرّاج، واستنكر عرفات قيام فراج العجوز بمغازلة الأستاذة، وقال حمكشة: إنه رجلٌ غريبٌ لا يخجل من نفسه ويريد الحياة على حساب غيره، ويرن الجرس وتنتهي الحصة.

ظللت أذاكر دروسي ساعات طويلة، حتى تشقّق جلدي، ونشف ريقي، وتصلّبت عظامي، وتقوّس ظهري، وبلغ الملل مداه، لكنني كنت أحتفظ بدهشتي مع كل درس أذاكره، وكنت لا أترك نفسي للضعف والملل والتراخي، أذاكر من بعد عودتي من المدرسة حتى آذان العصر، ثم أذهب مع والدي إلى الغيط، نعمل بإتقان ونعود مغرباً، نتناول طعام العشاء، وأظل أذاكر حتى أنام على الكتاب، ثم أستيقظ فجراً، أصلي وأدعو الله أن يوفّقني، وبعد ذلك أعتني بطيوري، ثم أستأنف المذاكرة، ثم أذهب إلى المدرسة، وهناك أستمع إلى دروسي باهتمام، وأناقش أساتذتي في كل ما صعب عليَّ فهمه، وبعدها استمع للأستاذة بدرية وهي تقرأ:

لقد نجحت غربة وأيوب في تكوين ثروة في زمن قصير، ووضعا كل هذا المال الذي جمعاه تحت تصرّف أمهما التي على حد قولهما ضحّت بكل شيء جميل من أجلهما، ووهبت حياتها لهما، كانت شلّع تعرف قيمة هذا المال الذي جاء بعد سنوات من العناء، فكانت تحافظ عليه ولا تنفقه

إلا في محله، كانت تردد في حكمة: لا أحد يعرف قيمة المال مثل الذي عاش محروماً منه.

ظهر عليها الثراء، ولقّبها أهل القرية بالحاجة شلّع، وصارت من سيدات القرية المعدودات، تلبس العباءات القطيفة، وتزيّن أصابعها بالخواتم الذهبية، وتجمّل معصمها بالغوايش وصدرها بالكرادين ذات الأحدى والعشرين طارة، وأصبحت محفظتها مكبوسة بالنقود من فئة المائتي جنيه، لكن يبدو أن حسوداً أصابها بعينٍ شريرةٍ، فوقع تأثير هذه العين على بنتها المسكينة غربة التي أصبحت حياتها مع زوجها مستحيلة، فانفصلت عنه بعد أن أنجبت منه بنتاً تشبه الجدة شلع اسمها سها، ثم تعرّف عليها شابٌ إسكندري يعرف أن لديها مالاً كثيراً حصلت على بعضه من عملها كممرضة في المملكة والبعض الآخر من طليقها، أقنعها هذا الشاب بأنه يحبها حباً شديداً، وبسذاجة الريفيات صدقته وتزوجا وعاشا معاً، شهوراً هنية، حتى وثقت فيه ثقة البنت في أبيها، وعشقت التراب الذي يمشي عليه، ومنحته كل ما أراد، وفي يومٍ جميل أخبرها بأن أحد أصدقائه المقربين يعمل في شركة عقارات ويريد منه أن يدخل شريكاً معه في مشروع يدر عليهم أضعاف رأس المال الذي سيدفعه.

تصدقه غربة وتعطيه كل النقود التي ادّخرتها، ويأخذ الأموال ويقول: إنه أعطاها لصاحبه وبعد أسبوع من استلامه الأموال تصلها على عنوانها بالمملكة العربية السعودية ورقة طلاقها، تدور الحياة بها، وتوشك تموت، ويجف حلقها، ويغلي كبدها، وتظلم الدنيا أمامها،

وتعرف بعد ذلك أن هذا الثعلب احتال عليها وأخذ منها كل ما كان معها وعاد إلى مصر، ليذوب في زحامها الشديد ويستمتع بأموالها.

تتصل غربة بأمها وتبكي مثل فتاة وحيدة فقدت أمها، وتشكو لها هذا الثعلب الماكر التي حسبته ملاكاً ووجدته شيطاناً وهي منهارة وضائعة، ولا تدري ماذا تفعل، فتقول لها أمها في نصح: الذي جمع مليوناً يستطيع أن يجمع اثنين وثلاثة وأربعة، وتخرجها من حزنها الثقيل هذا، وتخفّف ما بها من حسرة، وتخبرها بأن أموالها التي أرسلتها لها ما زالت كما هي، وتعرض عليها أن ترسلها لها كي تبدأ من جديد لكن غربة تقول: إنها لا تحتاج هذه الأموال، وتبكي وتكتئب وتنعزل، لكن أمها تعيد إليها توازنها مرة أخرى، وتبدأ غربة من جديد، وتنسى هذا الخائن، وتعالج أوجاع نفسها بالعمل الدؤوب.

تكسب غربة المال الكثير، ترسل لأمها قائلة: إنها تشتاق إليها كما يشتاق الزرع إلى الماء والعليل إلى الشفاء والحبيب إلى حبيبه والرضيع إلى صدر أمه، ثم تخبرها بأنها أرسلت لها مبلغاً من المال، تدّخر شلع هذا المال حتى يصبح رصيد غربة نصف مليون، ثم مليوناً، ثم مليوني جنيه، والحاج فراج يحوم حولها مثل نحلة تحوم حول زهرة، يقول أبياته الغزلية، لكن شلع التي لا تريد لبنتها جرحاً آخر، تبتسم لزوجها الحاج فراج وتعطيه ما يحفظ كبرياءه وسط الرجال، حتى تنتهي من بناء البيت، وتشتري أرضاً في العلن باسم زوجها وفي السر باسم غربة، وتبتسم الحياة مرة أخرى لغربة وأمها و...

نصفق بحرارة، تشكرنا الأستاذة بدرية، تقول أمنية: إنها رائعةٌ، فتشكرها الأستاذة بدرية، تقول مي في استفهام: وماذا عن اشتراكها في مسابقة الأم المثالية؟ يقول عرفات: إنها يجب أن تنزع هذه الفكرة من رأسها، تسأله الأستاذة بدرية قائلة: لماذا تقول هذا القول؟ يضحك ويقول: إن لقب الأم المثالية فازت به العام السابق راقصة مشهورة، فكيف لامرأة كادحة صابرة بنت نفسها بنفسها من العدم مثل شلع أن تفوز به؟ نضحك، ثم يقول حمكشة: إنها لو ذهبت إلى وحدة الشؤون الاجتماعية بقريتنا كي تقدّم أوراقها فسوف يضحك عليها الموظفون وسوف يسخرون منها، وربما يسبّبون لها أزمة نفسية، نضحك ثم تقول الأستاذة بدرية في استفهام لحمكشة: لماذا قلت هذا؟ يقول: إن هذه المسابقة في السنوات الأخيرة لم تعد شفافة كما كانت، وتدخلت الوساطة فيها وصارت المجاملات والرشوة هما اللتان تحددان الفائزات، يؤيّد معظمنا كلام حمكشة، فتصمت الأستاذة بدرية قليلاً ثم تقول في حسم: أنا سوف أقدّم لها، وإن شاء الله ستفوز، نظر بعضنا إلى بعض في عجب واستنكار، لاحظت الأستاذة ذلك، فقالت لنا مكررة كلامها في ثقة: نعم، إن شاء الله ستفوز، ثم دق جرس نهاية اليوم وخرجنا جميعاً من الفصل.

ينتهي المعلمون من شرح ومراجعة المناهج، ويزداد صهد الشمس، وترتفع الرطوبة بدرجة لا تطاق، ونتوقف عن الذهاب إلى المدرسة،

ونبقى في بيوتنا نذاكر دروسنا ونراجعها، ونجيب عن الامتحانات السابقة، ونحن ننتظر امتحان نهاية العام الذي سيحدد مصيرنا.

أجبت عن كل امتحانات النحو التي تجاوزت مائتي امتحان ما بين سنوات سابقة واسترشادية ومتوقعة، وكان مستواي رائعاً، ثم نمت في حجرتي، وإذ بي أراني في صحراء يغمرها الظلام المخيف، وأمي وأبي يقفان في حيرة وهما لا يعرفان ماذا يفعلان؟ وأنا في حجر أمي أصرخ وإخوتي في حجر أبي يبكون في هلع، يضرب أبي كفاً بكف في حيرة ويقول لأمي: ماذا نفعل الآن، الظلام سوف يبتلعنا؟

ألمح شعاع نور نحيف جداً يمتد على بحر الظلام المخيف، أمسك بيد أمي، وأمي تمسك بيد أبي، وأبي يمسك بيد إخوتي، وأخطو في حذر وخوف من السقوط في بحر الظلام، توشك أمي تسقط، لكن ينقذها أبي بأعجوبة، وأمشي على أطراف أصابعي ويمشون خلفي، وفي منتصف المسافة يسقط أخي عبد الباسط، تصرخ أمي وتحاول إنقاذه لكنه يسقط في الظلام الثقيل، فتصرخ أمي صرخة تجعل سطح الماء يتموّج، ينصحني أبي بالاستمرار في المشي فأمشي وخلفي أمي وأبي وإخوتي، حتى يصبح بيني وبين النور خطوات، ركبتاي ترتعشان، أمعائي تتقصّف، حلقي يجف، لكنني أتماسك حتى أنجو وتنجو أمي وأبي وإخوتي إلا عبد الباسط!

أقوم مفزوعة من النوم، أقول وأنا أجفف عرقي: خير، اللهم اجعله خيراً، ثم أقف وأخطو حتى أصل إلى زيرنا الفخاري المربوط في نخلة

وسط فناء البيت وأشرب حتى أطرد الجفاف الذي سكن حلقي وأعود إلى حجرتي، أجلس على حصيري، تقع عيني على كتاب الفيزياء وأوراق خاصة بدروس الأدب وبملخص قصة الأيام، أزيح الكتب جانباً، أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، أحاول فهم الحلم الذي حلمته، يقولون في بلدنا: إن رؤية الميت معناها أن أحداً من أقاربه سوف يموت، فهل سأموت أنا أم ... ؟ وقبل أن أقول: أبي، لا يتقبّل عقلي هذه الفكرة، فأبي هو سندي الوحيد في هذه الحياة القاسية وبدونه أضيع!

أصمت وأقول لنفسي: إنني منذ خمسة أيام راجعت مادة الجيولوجيا ونمت قبل منتصف الليل بنصف ساعة، ورأيت الأستاذ حسوب وهو يمسك عصا طويلة صنعها من فروع شجرة رُمّان ويجري خلفي وسط رواد مولد سيدي الشيخ سالمان أبو علي فاستيقظت، واعتقدت أن الصبح أوشك على الطلوع، فصليت وظللت أذاكر الكيمياء فصلاً ففصلاً، والنهار لا يطلع حتى ذاكرت أكثر من سبع ساعات متواصلة، ثم سمعت صوت المؤذن قادماً من جامع الشيخ سالمان وهو يؤذّن للفجر، أدركت أن حمار الليل قد سرقني، فضحكت، وحمدت الله على أنني راجعت فصلين كاملين من مادة الكيمياء هما فصلا الكيمياء العضوية اللذين كنت أعشقهما ثم صلّيت وذهبت إلى حصيري كي أنام ساعة.

رميت هذه الكوابيس المزعجة ظهري، كنت أقول لنفسي كلما رأيت كم الكتب المطلوب مني مراجعتها: إن رحلة الألف ميل تبدأ بحرف،

وكنت أردد ذلك المثل الذي أحبه: جبال الكحل تفنيها المراود! ثم أهجم عليها بعزيمة قوية وذهن صافٍ ونفس طموحة، لكن الكوابيس زادت، فذهبت إلى الأستاذة بدرية في بيتها، كان بيتها جميلاً، دخلت وسلّمت عليها، أخذتني إلى شقتها، وضعت ابنها الصغير في حجري واستأذنتني كي تستكمل الغسيل، قلت لها: لابأس وظللت ألعب مع طفلها الجميل وأشاهد التليفزيون الملون، لكن فجأة وقعت عيني على مجموعة من الأوراق مكتوبة بخطها الجميل وبالقلم الرصاص، مسكت هذه الأوراق وبدأت أقرأها: **الطرق مسدودة أمامي، أصبحت مقتنعة أن شلع لا يمكن أن تفوز باللقب، وحقيقة الأمر بدأت عزيمتي تضعف، وكلما تعمّقت أكثر ازددت اقتناعاً بعدم فوزها؛ لهذا فكّرت في الاعتذار لها، لكن كيف وقد تعلّقت بهذا الحلم وصار كل حياتها؟ لم أقدر على الاعتذار لها وقلت: لا بأس سأمشي في الطريق حسب المتاح وبسرعة جهّزت ملفاً جميلاً يضم إنجازات شلّع التي حققتها، فملف الجميلة لا بد أن يكون جميلاً مثلها، كتبته بخط جميل وعبارات تشع منها الحكمة، واستخدمت الألوان التي عاشت تحبها، ثم بيّنت الصعوبات التي تجاوزتها منذ فرض عليها أبوها وأخوها الزواج من فراج وقلعوها من بساتين ألوانها وأحلامها، ثم اتكأت على حلمها في الفوز بهذه المسابقة وتأثير ذلك عليها وعلى نساء قاوات والبلاد التي تشبهها، ثمَّ ذهبت إلى وحدة الشؤون الاجتماعية في قريتي ووجدت الموظفين بجلاليبهم الصعيدية وعمائمهم الكبيرة وهم يتشاجرون على اللحوم التي أرسلتها**

من القاهرة جمعية الأورمان للغلابة، ووجدتهم يتعاركون على السُّلف الميسَّرة التي أرسلتها الوزارة للمعدمين من أبناء القرية، صبرت ثم كلمتهم في شأن ترشيح شلع لمسابقة الأم المثالية، فضحكوا واستهزؤوا بشلع وبي، جاريتهم وأنا أبتسم وأقول لنفسي في همس: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، ثم عُدت للحديث عن حلم شلع في الحصول على لقب الأم المثالية حتى اقتنع بعضهم بقبول الطلب، ووافق على إرساله إلى إدارة البداري الاجتماعية، وبعد جهد كبير ختموا الطلب وأخذوا انتقالات الموظف الذي سيسلّم الطلب.

تابعت بنفسي خط سير الملف من وحدة الشؤون الاجتماعية بقريتي إلى إدارة البداري الاجتماعية، ثم ذهبت إلى مدير الإدارة وحدّثته عن الملف وشلع وحلمها وأهمية فوزها بالنسبة لنساء القرى الأخريات، وحدّثني بروتينية بلهاء عن عدم جدوى الاشتراك، ابتسمت وقلت في صبر: إنني أدرك كل ذلك، ثم صمتَ لحظة وقال في سخرية: هل يُعْقل أن الأم المثالية هذا العام ستكون من قاوات؟ بلعت غيظي بعد أن كدت أنفجر فيه وقلت له في ثقة وهدوء: إن الناس سواسية ولا ينبغي لمدير إدارة شؤون اجتماعية أن يكون عنصرياً بهذا الشكل، ويكفي ما نراه في بلادنا من تفرقة عنصرية بين دين وآخر و عائلة وأخرى، ثم صمتُّ لحظةً وقلت له: إن أقدم رغيف خبز في العالم صنعته امرأة من قاو، وأقدم إبرة خياطة صنعتها امرأة قاوية، وأقدم قطعة فخار وأقدم تمثال خرجا من قاو، فكيف تستكثر على امرأة من قاو الفوز بلقب الأم المثالية؟! ثم قلت

له: إن قاو خرج منها أدباء وممثلون وعلماء ورؤساء تحرير وشعراء ملأوا الدنيا جمالاً، ثم ابتسمتُ وطلبت منه قبول ملف هذه السّيدة الحالمة وإرساله إلى المديرية في أسيوط، يرجع معالي مدير الإدارة بظهره للوراء في كبرياء ويقول: إن الموضوع ليس بهذه البساطة، أقول له: كيف؟ ويقول: إن هذه المسابقة مسابقة سنوية لها شروط ومواعيد ولجنة تحكيم، ثم ابتسم وقال: لكن شلع سوف تفوز على مستوى الإدارة هذا العام، قلت في لهفة: كيف؟ وقال: إنه لم يتقدم للمسابقة غيرها، ثم علّل ذلك قائلاً: إن هذه المسابقة فقدت أهميتها، فرحت بما سمعته، وبعد أسبوع عرفت أن شلع تمّ تصعيدها للمنافسة على مستوى أسيوط، ففرحت وطرت إلى بيت شلع كي أزفّ لها هذا الخبر السعيد، فرحت شلع كثيراً وقالت في تمنٍّ والدموع توشك تسيل من عينيها: يا رب أفوز على مستوى المحافظة.

أتت أخبار المسابقة من أسيوط غير سارة، فالمحكّمون ما هم إلا موظفون ليس لديهم أي قدر من الثقافة أو الإنسانية، وهم مرتشون حسب ما عرفت، ففقدت الأمل في فوز شلع، وكنت كلما قابلتها تقبّلني وتأخذني في حضنها وتربت على كتفي وتخفّف عني، وكأنني أنا المرشحة للفوز باللقب، حتى تأكّدت أنها خسرت اللقب الذي حلمت به في هذه المحطة، وبروح رياضية شكرتني على ما بذلته من أجلها، وأخبرتها أنني غير حزينة لما حدث، وطلبت منها أن تشترك العام القادم ربما يُحدث الله بعد العسر يسراً.

وافقت شلع على اقتراحي هذا رغم استيائها مما حدث، لكن سرعان ما جاءت الأخبار الجديدة قائلةً: إن محافظ أسيوط ـ الذي ظلَّ خمس سنوات قي قصره المطل على النيل لا يهتم بمشاكل شعبه ولا يطيق ترك هواء التكييف المنعش ولا يتحمّل النزول في الشارع ولا يتقبّل فكرة التواجد وسط العامة ـ قد تم عزله من منصبه وجيء بمحافظٍ شابٍ يُقال: إنه غاية في النشاط والحيوية، وأول ما دخل مبنى المحافظة عقد بسرعة اجتماعاً مع وكلاء الوزارات ورؤساء الأحياء، وأكّد على أنه قادمٌ لمحاربة المحسوبية والفساد، وهذا زرع الخوف في قلوب سامعيه، وكان أكثر هؤلاء خوفاً وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية الذي كان قد عقد العزم على أن يمنح لقب الأم المثالية في محافظة أسيوط لأم مُهرّب آثار وتاجر مواد مخدّرة دفع له في قلب مكتبه رشوة كي تفوز أمه بهذا اللقب، ويستتر خلف لقبها بعد ذلك، ويخدع به الناسَ وتزداد أمواله الحرام، وبسرعة عاد وكيل وزارة الشئون الاجتماعية إلى مكتبه واستدعى اللجنة التي اشتراها ببعض الفتات، وأمرهم بإلغاء فوز دلبهان الدنقلي بلقب الأم المثالية، ثم سألهم عن المتسابقة التي تستحق الفوز باللقب؟ صمت الأعضاء قليلاً، ثم نظروا في بعضهم البعض وقالوا معاً في صوت واحد: إنها شلّع! قال لهم مؤكداً: إذاً الأم المثالية لمحافظة أسيوط هذا العام هي شلع.

فرحت فرحاً كبيراً وهرولت ناحية بيت شلع، باركت لها على هذا الفوز المستحق، كانت تجلس مثل الكاتب المصري تحت ظلال جبل

قاوات تستمتع بطراوة أرضه، وتتذكر الصعوبات التي عاشتها والصبر الذي صبرته والأحلام التي حققتها والتي تحاول تحقيقها والتي أخفقت في تحقيقها. قلت لها: مبارك، وقالت وهي لا تصدق ما سمعته: ماذا تقولين يا بنتي؟

أقول في إعجاب شديد: الله، وتقول وهي تعصر الملابس: دعك من شلع الآن، أقول وأنا أداعب صغيرها: يبدو أنها ستحقق حلمها، وتقول وهي تنشر الغسيل: أريد من عوافي أن تحقّق حلمها، فأقول في عزيمة قوية: سأفعل، ونستمر في مراجعة دروسنا بجدّية وبعد أيام قليلة يأتي العامل ليأخذ من كل طالب وطالبة منّا خمسين جنيهاً كي يشترى منها أطعمة ومشروبات للملاحظين والمراقبين ورئيس اللجنة، فييسروا لنا الغش على حد قوله، أسأل وأعرف أن الطلاب وفي مقدمتهم أحمد وحمكشة وعرفات رفضوا دفع هذا المبلغ رغم مقدرة أحمد وحمكشة المالية، ورغم أنهم أفسدوا لجنة الإعدادية بأموال آبائهم، لقد رفضوا هذه المرة وقالوا له: نحن لا نريد غشاً! ومثلهم فعلت أنا وغادة وأمنية ومي وسوسن وغالبية الطالبات، فاندهش الجميع من هذه الفرقة الغريبة التي كسرت المألوف منذ سنين، فاندهش المعلمون وأولياء الأمور وأهالي قاوات وقالوا لبعضهم: ننتظر لنرى ما تسفر عنه الأيام وكيف ينجح هؤلاء بدون غش؟

القلق كان بادياً على بعض أولياء الأمور، وخاصة الحاج يونس الذي حلم بأن يكون ولده الوحيد أحمد ضابط شرطة منذ مولده، وحتى

هذه اللحظة فهو يحب ابن عمه لواء الشرطة، ويحب الهيبة والمكانة والنفوذ الذي يتمتع به ضابط الشرطة في بلادنا؛ لهذا فهو منذ رزقه الله بأحمد وهو يراه ضابط شرطة مثل عمه سيادة اللواء، طمأنه أحمد، وأكد له أنه ذاكر دروسه جيداً، وأنه لا يحتاج للغش، سكت الأب ووافق ولده الرأي، لكنه في الحقيقة كان قلقاً، وكان كلما جاءت سيرة الامتحان يضع يده على قلبه ويقول: استرها يا رب، في نفس الوقت كانت كوابيسي وقلقي وخوفي يزدادون، وكنت أردد مثله: استرها يا رب وأتظاهر بالتماسك خاصة أمام أبي الذي بدأ يشيخ.

بدأت امتحانات نهاية العام، استيقظت مبكراً قبل أن تستيقظ أشعة الشمس، توضأت وصلّيت وأكلت كسرة خبز غمّستها في كوب الشاي بالحليب، واستيقظ أبي ووجدني قد سبقته واستيقظت، غيّر ريقه بكسرة خبز مغمسة في الشاي بالحليب، ثم حدّق في عيني وقال لي وهو يوصيني: إن لحظة الجد قد حانت، ثم صمت لحظة وقال لي: خذي مجموعاً كبيراً يدخلك كلية الطب، وسأمنحك كل ما تطلبين من مال حتى لو بعت أرضي وبيتي وبدني من أجل تعليمك، أقشعر جسمي وسالت دموعي، فضمني إلي صدره ومسح دموعي، ثم أخذ الشرشرة والحبال وإخوتي وذهب إلى الحقل، دخلت لطيوري، غيّرت لهم الماء وقدّمت لهم الحبوب ونظرت في أجنحة حمامي البيضاء وتخيلت نفسي وأنا أرتدي بالطو الأطباء، فابتسمت وقرّرت أن أبذل كل ما في وسعي كي أحقق حلمي.

خرجت من حجرتي، سمعت غادة تنادي عليّ بصوت هامس، قلت لها: إنني ذاهبة إليها، وأخذت رقم جلوسي وأقلامي ومسطرتي وخرجت وأنا أقرأ في خشوع: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي * وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي * وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾، ومشينا مسرعتين، كان الجو صهداً، وكانت الرطوبة خانقة، وكنا مرعوبتين من الامتحان، لدرجة أنني شعرت أن ركبتيَّ لم تعودا قادرتين على حمل جسمي، ركبنا السيارة الأجرة، كان عرفات جالساً بجوار السائق يضحك ولا يبدو عليه الخوف، ولاحظت من النافذة سيارة العم يونس وهي تمرق متجهة إلى الشمال وفيها يركب أحمد وحمكشة، وصلنا البداري، مشيت أنا وغادة حوالي ربع ساعة مشياً جاداً حتى وصلنا مدرسة البداري الثانوية التجارية التي بها لجنة امتحاننا، خفنا أكثر، وظللت أردد في سري: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي * وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي * وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾، أمرونا في صياحٍ بدخول اللجنة، كنت أنا وغادة في لجنة واحدة، وعندما طابقَ الملاحظ أسماء الطلبة والطالبات بصوته المزعج على كشفٍ ورقي معه عرفنا أن رضوى معنا في اللجنة، تأملناها، كان يبدو عليها الثراء وكانت في غاية الأناقة؛ بشرتها مشبّعة وبيضاء كبنات الإنجليز وليست محمّصة مثلنا، وتتكلم بلهجة الأحياء الراقية وليست مثلنا، وسرعان ما جاء رئيس اللجنة بنفسه ليطمئنها ويهدّئ من روعها، وسرعان ما كشفت دون حرج عن مكانة ونفوذ والدها، وبعد دقائق وزّعوا علينا ورق الأسئلة والإجابة، كتبت بياناتي بخط جميل، وجاء الملاحظان

ليوقّعا في ورقتي، سخر أحدهما من اسمي وضحك بعض الزملاء والزميلات عليّ، لم أكترث ووضعت تركيزي كله في ورقتي، وظللت أقرأ السؤال جيداً وأعرف ماذا يريد منّي واضعُ الامتحان، ثم أصيغ إجابتي بطريقة جميلة وأكتبها بخط رائع وأرفع رأسي لألتقط أنفاسي، وهنا لاحظت أن جميع القائمين على اللجنة ييسّرون الغش لرضوى بينما بقية الطلبة مثل أيتام العيد لا يسأل فيهم أحد، ورغم كل ذلك لم أكترث ولم أغضب.

انتهيت من النحو، كانت قطعة النحو بها أسئلة ذكية لا يجيب عنها إلا المتمكنون، أجبت عنها، وأرضيت غروري ورفعت رأسي كعادتي لألتقط نفساً عميقاً وإذ بي أرى غادة غاضبة ومستاءة من تيسير الغش لرضوى، قالت غادة: ما معنى أن نذاكر طيلة العام ويوم الامتحان تعطون الإجابات للبعض بهذه السهولة؟ فيغضب الملاحظ ويهدّد غادة بعمل محضر غشٍّ لها، وترد عليه غادة في استنكار: كيف تحرر محضراً لَمَنْ لا تغش بينما مَنْ تغش تتمنون لها الرضا؟ يقول الملاحظ: إنه حرٌّ في لجنته، ومَنْ لا يعجبه ما يقوم به يفك الحبال التي في وسطه ويركب أعلى ما في خيوله، أقول لغادة في همس: لا تهتمي بما يحدث للآخرين وانشغلي بإجاباتك، تهز غادة رأسها مؤيدة كلامي، وتستأنف الانشغال بامتحانها، ثمَّ أنتهي من امتحاني وأراجع إجاباتي، وعندما تمرُّ عليّ ثلاث ساعات أسلّم كراسة إجابتي وأخرج لأذاكر مادة اللغة الإنجليزية التي لا بد أن أحصل فيها على الدرجة النهائية كي لا تهتز صورتي في نظر الأستاذة بدرية التي قدّمت الكثير من أجلنا.

نخرج، وفي فناء اللجنة يتحدّث أحمد وحمكشة وعرفات عن الغش الذي ملأ لجان مدارس البداري، وعن الخوف الذي يسيطر على الملاحظين والمراقبين ورئيس اللجنة، فالبنادق تملأ مزارع الرُّمان حول المدرسة، ولجنة البداري من اللجان الأربع الخطرة على مستوى الجمهورية، وعنف البداري تشهد به المؤسسات الحكومية التي أقرّت بأن أعلى نسبة ثأر في البداري وأعلى نسبة فقر فيها أيضاً، ثم يتحدّثون عن خلو لجان مدارس قاوات من الغش، ثم يحمدون الله على أنهم أجادوا في امتحان مادة اللغة العربية بدون غش.

نذهب جميعاً لنحضر حصّة مراجعة اللغة الإنجليزية المجانية، ونقابل الأستاذة بدرية، تراجع معنا وتبسّط لنا ما عسر علينا، ثم تخرج من حقيبتها الجميلة ورقة واحدة مكتوبة بخطٍ بديعٍ، وتقرأ لنا:

كنتُ قد رضيت بفوز شلع بلقب الأم المثالية على مستوى محافظة أسيوط، وكانت هي قد رضيت بذلك وحمدت الله، وشكرت فضله، وكانت تمشي في طرقات القرية مزهوة، تُخرج ورقة جريدة طوتها كحجاب واحتفظت بها بعناية شديدة لكل من تراه، تبسط هذا الجزء المقصوص من ورقة الجريدة وتطلب منه أن يتفرّج على صورتها في الجريدة ويقرأ خبر فوزها بلقب الأم المثالية على أسيوط، كانت مثل طفلة وديعة لا تصدّق ما حدث لها، وكانت تذهب إلى الناس في بيوتهم، تطرق البوابات لتخبرهم بأنها فازت هذا العام بلقب الأم المثالية على مستوى المحافظة، ثم تطلب منهم أن يدعوا لها بالفوز على

مستوى الجمهورية، كانت شلع طفلة بريئة قنوعة قبلت يدها بطناً وظهراً، ورضيت بما أنجزت في حياتها، لكن بعد مرور حوالي ستة أسابيع بدأ التليفزيون المصري يتحدّث عن استعدادات الحكومة للاحتفال بعيد الأم.

وبعد مراسيم افتتاح احتفال الإعلام المصري بعيد الأم تخرج المذيعة دينا قنديل، وتعلن نتيجة مسابقة الأم المثالية على مستوى الجمهورية وتقول: إن السيدة الفضلى التي فازت باللقب هذا العام هي شلع عامر المصري من محافظة أسيوط!

نصفق للأستاذة بدرية، ونطلب منها أن تنشر بقية روايتها هذه؛ كي يتعلم الشباب منها أنه لا مستحيل مع الصبر والمحاولة، وأن الإنسان الطموح لا يحتاج معجزات كي يحقق حلمه، وكما يقول المثل: الشاطرة تغزل برجل حمار، تعدنا بأنها ستحاول نشرها كاملة، ثم تطلب منا أن نبذل قصارى جهدنا كي نحوّل أحلامنا إلى حقائق، ثم نودّعها ونعود إلى بيوتنا لنذاكر دروسنا، ونكون عند حسن ظنها.

يدخل أبي البيت وعلى وجهه وملابسه غبار وأتربة وبقايا حشرة المن السوداء، يضع الفرّيخ الأخضر وقناديله الخضراء الصغيرة للبقرة، ويقيّد الحمارة في مكانها، ثم يدخل ويقول: إن عمي والد أمنية اشترى الجريدة كي تضطلع أمنية على نماذج الامتحان الواردة بها، لكن المفاجأة أنه وجد في صدارتها صورة شلع وخبر فوزها، ثم يغسل يديه وذراعيه ووجهه ويفتح التليفزيون الأبيض والأسود، وإذ به يرى شلع تتحدّث

عن تعاطف الأستاذة بدرية معها وتطوّعها للتقديم لها وفضلها عليها في الفوز بهذا اللقب، يصيح أبي في فرح وينادي على زوجته وعليَّ أنا وهو يقول: شلع في التليفزيون.

أهرول وأنا أمسك كتاب اللغة الإنجليزية، أرى شلع بوجه يشع طمأنينة وابتسامة تريح القلب، إنها الحاجة شلع جارتنا، وإن الأستاذة بدرية نجحت في تسمية الأشياء بمسمياتها، لقد كان وجهها عبر الشاشة أجمل بكثير من الواقع! وها هي تتحدّث عمّا عانته منذ وعيت على هذه الدنيا، وعن الصبر الذي صبرته طيلة حياتها، وعن كيفيه تحويلها للصعوبات إلى نجاحات، ثم حفاظها على هذه النجاحات، ثم تختم كلامها قائلة: إنها تحكي ما عانته للشباب كي يتعلّموا منها أن الصبر والتعلق بالحلم لن يخذلا صاحبهما، وأن الاستسلام للصعوبات بداية النهاية، ينظر لي أبي وينصحني بأن أضع هذه الكلمات في بؤرة اهتمامي، أعده بذلك، وأعود لأذاكر دروس اللغة الإنجليزية، أجلس في حجرتي، أفكر في حكاية شلع، آخذ منها العبرة وأقرّر الاستمرار في مذاكرة دروسي كي أحقّق حلمي وأحوّله إلى واقعٍ وأنجو من هذا العذاب.

أستيقظ مبكراً، أراجع النقاط المهمة التي نصحتنا الأستاذة بدرية بمراجعتها، آكل كسرة خبزٍ مغموسة في كوب شاي ثقيل أعدّته لي زوجة أبي كي يزداد تركيزي طيلة وقت الامتحان، أسمع صوت غادة وأمسك أقلامي وأدواتي وأخرج وأنا أصيح: اصبري، أنا قادمة.

أخرج من بيتنا، أسلّم عليها، نخطو خائفتين، نركب السيارة

الأجرة، يحشرنا السائق فيها فوق بعضنا وبعد ثلث ساعة نصل مدينة البداري، الطلاب والطالبات وأولياء الأمور يمشون خائفين؛ فيوم امتحان اللغة الإنجليزية من أصعب الامتحانات وهو على حد قول المعلمين الذي يحدّد النتيجة، نمرُّ في شوارع المدينة الضيقة العتيقة المتداخلة، أرى مبنى سينما البداري وقد تحوّل إلى مقلب قمامةٍ، وأرى جدران البيوت امتلأت بآثار الأعيرة وبالثقوب التي أحدثتها الطلقات النارية، وأرى الأمكنة المبنية بقوالب الحجر الجيري فوق البيوت، لقد صارت المدينة التي قدمت أقدم حضارة إنسانية وكراً للعنف والثأر والمخدرات، أستنكر كل ذلك بيني وبين نفسي، وأتقدّم ناحية مقر اللجنة، يلفت نظري البنادق الآلية المعلّقة في فروع شجر الرمان وقد حجبت زهورها الحمراء الجميلة، أستنكر هذا، ثمَّ أطرد كل هذه المناظر السيئة من مخيلتي وأنشغل بزملائي وزميلاتي والملاحظين والمراقبين وبالامتحان.

أبدأ الإجابة بخط جميل، أجيب عن أكثر من ربع الامتحان، تتلفت رضوى حولها، تطلب زجاجة ماء، يهرول الملاحظ ويُحضرها لها، تشرب رضوى جرعات قليلة، ثم تقول للملاحظ: إنها لا تعرف شيئاً من هذا الامتحان المعقّد على حد قولها، وتطلب منه أن يسمح لها باستخدام التليفون المحمول، ويطلب منها أن تصبر قليلاً حتى يرسل لها أبوها إجابة الامتحان عبر الواتس أب، لا تقتنع بكلامه وتطلب منه استخدام الكتاب الخارجي، يسمح لها وتبدأ في نقل بعض الإجابات، ثم تتعسّر في

الحصول على بقية الإجابات وتحمر خدودها وتوشك تبكي، يلاحظ الملاحظ ذلك فيطلب منها أن تهدأ وتنتظر حتى يخرج ويعود وهو يمسك تليفوناً محمولاً، يعطيه لها، تفتح الواتس أب وتنهمك في نقل الإجابات فأغضب، وأقول للملاحظ في عتاب: أليس ما تفعلونه حراماً يا أستاذ؟ يقول الملاحظ: إنه حرام ويهمُّ بأخذ التليفون من رضوى، لكن الملاحظ الثاني يمنعه ويقول وهو يقصدني بالكلام: دع الدكتورة رضوى تغش كيفما تريد! ثم ينظر صوبي باحتقار ويقول: هذه لن تفرض علينا شيئاً، أغضب وتغضب بقية الطالبات ويقلن: إن الغش حرام، لكن الملاحظ الذي ييسّر الغش يقول: إنه سوف يغشّش ولن يأخذ التليفون من الدكتورة رضوى ثم يبتسم، ويقول للطالبات: من ترد منكن الغش فلتغش!

ينطلق ماراثون الغش، يحترق دمي من الغضب، لكنني أتذكّر الأستاذة بدرية وهي تقول لي: إن الطالب الذي يغش لا يمكن أن يأخذ درجات أكثر من الذي يعتمد على نفسه، فأنشغل بامتحاني، أقرأ السؤال جيداً، أفكر في الإجابة جيداً، أصيغ الإجابة بشكل جميل، ثم أكتبها بخطٍ رائعٍ، ثم أبدأ المراجعة غير مكترثة بالسوق الذي يحيط بي حتى أسلّم ورقتي وأخرج.

أعود إلى قريتي، أراجع إجاباتي مع الأستاذة بدرية، تخبرني بأن كل إجاباتي صائبة وتؤكد لي أنني سوف آخذ الدرجة الكاملة؛ فأفرح وأتشجّع وأذاكر الجيولوجيا وأجيب عن كل أسئلتها غير مكترثة بما

يحدث من غش، ثم أجيب عن أسئلة الأحياء والكيمياء، حتى أصل لليوم الأخير وهو امتحان الفيزياء الذي جاء في غاية الصعوبة مما تسبّب في حدوث حالات إغماء وصدمات نفسية وعصبية، لكنني قرأت الامتحان القراءة الأولى ووجدت أن ما أعرفه قليلٌ، فأخذت نفساً عميقاً وقرأته مرة ثانية ووجدت أن ما أعرفه هذه المرة أكثر مما كنت أعرفه في المرة الأولى، طمأنت نفسي، وقلت: كلما قرأت الامتحان أكثر وفكّرت فيه أكثر أتمكن من الإجابة عنه، وهكذا بدأت أقرأ وأفكر وأجيب، والطالبات حولي في حالة ذعرٍ وصراخ، حتى أجبت عن كل الأسئلة إلا القليل منها الذي ظللت أفكّر فيه وأجيب عما أتوصّل إلى معرفته، حتى دق جرس النهاية، وجمع الملاحظان ورق الإجابة، وخرجنا لندخل في مرحلة انتظار النتيجة، فعشت أياماً تأكّدت فيها من أن الانتظار تعذيبٌ بطيء.

أنشغل بالمهارات المنزلية حتى أتقنها وتنال رضا أبي، لكن هذا لم يخفّف قلقي وأنا أنتظر النتيجة، فأذهب في الوقت الذي لا تجد فيه لي زوجة أبي عملاً إلى الحقل، أهرول خلف أبي، أمسك الفأس، أعزق وأفلّح، وأغرس وأروي، وأحش وأقطع وأقشّر، لكن كل ذلك لم يخفّف قلقي بسبب انتظار النتيجة، فأذهب إلى غادة في بيتهم، أقابل أباها الذي يعتقد اعتقاداً كبيراً إنه سيموت قريباً ويترك بنتيه غادة وأسماء تواجهان رياح الحياة القاسية؛ لهذا يريد أن يسترهما بالزواج رغم صغر سنهما ونبوغهما في المدرسة قبل أن يموت، أضحك وأقول له: إن غادة ستغيّر خطته وقبل أن يقول: كيف؟ أخبره بأنها ستنجح في الثانوية العامة،

وستدخل كلية الطب، وستصبح طبيبة، ولا يصح أن يزوّجها لابن عمها الذي لم يحصل حتى على الشهادة الإعدادية، يقول في ضعف: إنه سيزوجها لابن عمها ويخرج مسرعا، أسأل غادة عن أخبار زملائنا وزميلاتنا في المدرسة، فتحدثني عن عرفات الذي سافر إلى القاهرة كي يعبئ الخرسانة بالكريك ويحصل على مائة وخمسين جنيهاً في اليوم، ويدّخر هذه النقود؛ كي يجد بعض المال الذي ينفقه عندما تفتح الجامعة أبوابها له، ثم تحدثني عن أحمد الذي ألحقه أبوه بمركز لتأهيل الطلبة لكلية الشرطة، ثم تخبرني بأنها لا تنام ولا تأكل بسبب انتظار النتيجة، فأقول لها: إنني حصلت على نسخة مطبوعة من رواية (ضي) أهدتها لي الأستاذة بدرية، تطلب مني هذه النسخة كي تقرأها، ثم تبتسم وتقول لي في همس: إن حياتها تشبه حياة شلع؛ لهذا فهي ستكون عنيدة ولن تضعف مثلما ضعفت عندما خافت من تكرار مصير عمتها معها ووافقت على الزواج من فراج، أعدها بإحضارها لها وأودّعها وأنصرف وبعد ثلاثة وثلاثين يوماً من القلق تظهر النتيجة، ويدخل أبي والعرق يملأ وجهه، يطوّح العصا في الهواء، يقول: إنه أصبح أبا الدكتورة، ثم يقرّبني منه، ويقبّل رأسي وهو يقول: أخدتي تسعة وتسعين في المية وثمانية من عشرة يا عوافي، ألف مبروك يا بنتي.

تزغرد زوجة أبي زغرودة قوية، ويفرح إخوتي ويتحنجلون، ويهرولون في كل أنحاء البيت، يشتري أبي صناديق الكوكاكولا التي لم تدخل زجاجاتها اللامعة بيتنا إلا عندما كان يمرض أحدنا مرضاً شديداً، يأتي الأقارب والجيران، يتباهى الجميع ببنتهم التي ستدخل كلية

الطب، يأتي الناس وهم يحملون القفف المملوءة بالخبز والطيور والسمن، أو بأكياس مملوءة بالشاي والسكر، أو صناديق الكوكاكولا يباركون لنا على حصولي على هذا المجموع الذي لم يحصل عليه الرجال على حد قولهم!

أعرف أن غادة حصلت على سبعٍ وتسعين بالمائة وأربعٍ من عشر، وأمنية ستاً وتسعين بالمائة، وأحمد حصل على ثمانين بالمائة، وعرفات على سبعٍ وسبعين بالمائة، وحمكشة على خمسٍ وثمانين بالمائة، ومي على ثلاثٍ وتسعين بالمائة، وسوسن على تسعٍ وثمانين بالمائة، والمفاجأة التي لم يصدقها أحدٌ أن رضوى لم تأخذ رغم كل الغش التي غشته أكثر من تسعين بالمائة، أما نرمين فلديها دور ثانٍ في الفيزياء والأحياء، وشادي ابن المذيع المشهور بمحاربته للفساد فقد حصل على تسعٍ وتسعين وسبعٍ من عشر بالمائة، ونال المركز العاشر على مستوى الجمهورية شعبة القسم العلمي، وتم نشر اسمه وصورته ومجموعه وترتيبه في كل الصحف والمواقع والقنوات التليفزيونية، لكن سرعان ما تدخل الأستاذة بدرية على الفيس بوك وتكتب في صفحتها أن هناك طالبة اسمها عوافي عبد العاطي عليان حصلت على المركز العاشر شعبة علمي علوم لكن حدث خطأ وذكروا طالباً أقل منها في الدرجات، وتضع صورتي ودرجاتي، وصورة شادي ودرجاته، وصورة للعشرة الأوائل في قسم علمي علوم ليس مدرجاً فيها اسمي!

جميلة جداً الأستاذة بدرية، إنها نوع نادر من المعلمين والمعلمات، لقد

غيّرت مسار حياتنا وتحدّت زملاءها وجمودهم وطمعهم من أجلنا؛ وظلت تدافع عنّا حتى بعد أن ظهرت النتيجة، وها هي تكتشف الظلم الذي وقع عليّ قبل أن أكتشفه أنا وها هي تواجه الخطأ وتتحدى المذيع المشهور وزملاءه من أجلي، أنا أحب الأستاذة بدرية وأشعر بأنني مدينة لها بالكثير، أقول لها كل هذا فتبتسم وتقول: هذا واجبي يا دكتورة.

بسرعة يتعاطف الناس معي، يعلقون على بوست الأستاذة بدرية مدافعين عن حقي، ويندّدون بهذا الظلم الذي وقع عليّ، ويقومون بمشاركة البوست على صفحاتهم، وينتشر الخبر بسرعة، وأصبح حديث الجميع في مصر كلها، وكي يتم تدارك هذا الخطأ الكارثي الذي وقع عليَّ يأتي وكيل وزارة التربية والتعليم بأسيوط والسيد المحافظ ومعهما بعض الصحافيين والإعلاميين إلى بيتنا الضيق الذي لا يزيد عرضه عن خمسة أمتار، والتي تتكون واجهته من بوابة خشبية صغيرة قديمة وباب صغير يؤدي لحجرة صغيرة اسمها المندرة لا تحتوي إلا على بقايا دكّة خشبية ومحراث قديم وفأس كبيرة تلمع وفأسين صغيرين.

يلتقون بي، ويجرون معي الأحاديث الصحافية، ويصورون الحجرة الفقيرة التي كنت أذاكر فيها، والمصباح الشاحب الذي كنت أذاكر عليه، والكرسي والمنضدة المتهالكين اللذين كنت أذاكر عليهما، ويذيعون هذه اللقاءات في القنوات الواسعة الانتشار، وينتشر كل هذا بسرعة انتشار الإشاعة المحبوكة الصنع في مجتمع جاهل، وفي المساء يأتي مدير المدرسة والعرق يشرّ منه وأنفاسه تلهث ويعطيني تليفونه المحمول بيد ترتعش

بشدة، ويخبرني بأن معالي وزير التربية والتعليم يتصل بي ويبارك لي على تفوقي، ثم يعتذر عن الخطأ الذي وقع عليَّ ويطيّب خاطري، ويزف لي خبر تحمُّل الوزارة كل مصاريف دراستي في كلية الطب مع منح والدي تأشيرة للحج هذا العام.

نفرح كثيراً، ويكاد أبي يطير من الفرح، يقول: إن زيارة بيت الله الحرام كانت حلمه الذي يخفيه في نفسه منذ سنين، ثم يضمني وهو يبكي ويقول: إن حلمه تحقق على يديّ، ويأتي المباركون والمهنئون وأظل أصنع الشاي الثقيل وأعطيه لأحد إخوتي كي يقدّمه للضيوف، وأفتح زجاجات الكوكاكولا وأقدّمها لأهل قريتي وهم يرددون شكراً يا دكتورة حتى الذين كانوا يسخرون مني ويقولون لي: أم جزمة بلاستك قالوا لي: مبارك يا دكتورة، وأظل هكذا حتى يأتي عمي علي المصري من مكتب البريد ويقدّم لأبي خطاباً أنيقاً للغاية لم أرَ مثله في حياتي من قبل، كُتب في وجهه اسمي وعنواني مرة باللغة الإنجليزية وأخرى بالعربية، يسأل أبي عم علي المصري عن مُرسِل هذا الخطاب، يقول له في خجل: مكتوب بالإنجليزي ولم أستطع قراءته، يهز أبي رأسه، يأخذ الخطاب، يقدّمه لي، أقرأ بيانات المُرسل المكتوبة باللغة الإنجليزية، أعرف أن الجامعة البريطانية في القاهرة هي التي أرسلته لي، لا أصدق، وأقول لأبي، فيأمرني بفتح الرسالة ومعرفة ما فيها، أفتح الرسالة، أجدهم يعرضون عليّ الانضمام إلى جامعتهم لدراسة الطب فيها مع تحمّلهم كل النفقات وصرف مكافأة شهرية لي، أفرح كثيراً، لا أصدّق ما أقرأ، أقوم

بقراءة الرسالة مرة أخرى، أتأكّد من عرضهم علي، أشعر بقيمتي وبقيمة ما أنجزته، يسألني أبي عما جاء في الرسالة، أخبره بمحتوى الرسالة، فيقول في استفهام: وأين توجد هذه؟ أقول له: إنها في القاهرة، وإنها من أفضل الجامعات في العالم، وإنهم سيتكفلون بكل نفقات تعليمي، فيقول في استفهام؟ وهل ستعيشين وحيدة في مصر؟ أقول له: إنني سأعيش في المدينة الجامعية، ثم أذكّره بحسن تربيته لي، وأطلب منه ألا يقلق، فيهز رأسه في رضا وهو يدعو الله أن يوفّقني ويحرسني ويرعاني ويمنحني أعلى المناصب، لكنه في المساء يعود، ويطلب مني صرف نظر عن الانضمام للجامعة البريطانية، أسأله لماذا غيّر رأيه؟ يقول: إن بعض الناس يقولون: إن الإنجليز سيستفيدون بعلمك وإن مصر بلدك لن تستفيد منه، أبتسم وأقول له: يا أبي، إن العلم لا وطن له، وإنني سوف أتعلم في الجامعة البريطانية كي أنفع بلدي وأهلي، ثم أحدّثه عن الدكتور مجدي يعقوب الذي تعلّم في بريطانيا وأمريكا، ثم عاد إلى أسوان ليعالج فقراء هذا الوطن العظيم، فيهز رأسه ويقول لي: افعلي ما ترينه صائباً.

أعجن وأخبز، أملأ القفة بالخبز والبسكويت والغرّيبة والفايش والجوافة والعنب والرمّان، وبعد الفجر أحمل القفة فوق رأسي، أمشي في شوارع ترابية ضيقة حتى أصل الجبّانة حيث السكون المخيف، أقرأ الفاتحة لأموات المسلمين فتخف حدة الخوف عندي، وبصعوبة أتعرّف على قبر أمي، فالقبور في جبّانة قريتي كلها تشبه بعضها، أجلس وأنا أتجه نحو القبلة، أقرأ الفاتحة لأمي، أبشّرها بدخولي كلية الطب، وبأنني

محوت العار الذي ألحقه بها أخي عبد الباسط، وبأن الناس في قريتي تنسب نجاحي لها رغم كل ما بذله أبي معي، أؤكد لها أنني أجبرت الناس على ذكرها بالخير، وأطلب منها أن تطمئن في قبرها، ثم أوزّع الخبز والبسكويت والغريبة والفايش والفاكهة على اللحاّدين وفقراء القرية الذين جاءوا إليّ مسرعين من كل مكان، ثم أدعو لأمي بأن يرحمها الله، ويغفر لها ويسكنها فسيح جناته وبعد ذلك أقرأ لها الفاتحة وأعود لأستعد للسفر إلى القاهرة.

أستيقظ مبكراً، أغتسل وألبس ملابس السفر، أتزيّن وأزيل آثار التعب والإرهاق التي راكمتها الثانوية العامة فوق بدني، أراجع أشيائي التي سآخذها معي، أتأكّد من وجود بطاقتي الشخصية وشهادة نجاح الثانوية العامة وشهادة ميلادي وصورة من بطاقة أبي وشهادة وفاة أمي وخطاب الجامعة البريطانية لي، يقول لي أبي في حكمة: سوف أرسلك إلى مصر كي تتعلمي وتصبحي عظيمة، فحذارِ أن تفعلي شيئاً يسيء لي! أرتمي في حضنه، وتسيل دموعي وأؤكّد له أنني بنته التي رفعت رأسه ولا يمكن أن تفعل ما يشينه بعد ذلك، نسمع صوت كلكسات السيارة وصياح السائق ومزاحه وهو يحثني على الخروج بسرعة، ويصيح: يالله، يا دكتورة عوافي، آخذ حقيبتي وأسلم على زوجة أبي وإخوتي وأخطو خارجة بينما أبي يحمل قفة بها أرغفة خبز شمسي وملوخية ناشفة وويكة يابسة وثوم وبصل وسمن بلدي وجبنة قريش وجبنة قديمة، ويطلب من السائق أن يضعها في السيارة، يضحك السائق وبعض الركاب، يقول السائق ساخراً لأبي: مش؟ لقد تاب الله عليها منه، هناك ستعيش

على الكيزر يا قطع أبوك وأمك! يضحك بعض الركاب، ويضحك السائق، وبسرعة قبل أن يغضب أبي ويشتمهم يقول له السائق: إن كل شيء موجود في الجامعة، ولا تحتاج لأيٍ من هذا، وينصحه بإعادة هذه الأشياء لزوجته، يندهش أبي ولا يصدّق كلام السائق، لكن السائق يقسم له بأنها لن تحتاج لهذه الأشياء التي من المؤكد ستجعل القاهريين يضحكون عليها، ثم يصمت لحظة ويقول له: إن أهل بلدنا لو رأوا بقايا الطعام التي تزيد من طلبة الجامعة البريطانية يشبعون بمجرد النظر، يضحك الجميع، يهز أبي رأسه في موافقة وأدخل السيارة، وإذ بي أجد أحمد وهو حليق الرأس والذقن واللحية ويرتدي ملابس كلية الشرطة، وغادة وهي تضع البالطو الأبيض على ركبتيها، وحمكشة وهو يلبس قبعة الطباخين البيضاء الطويلة، وعرفات وقد كبر شعر رأسه وأخذ ملامح الفنانين، وأمنية وهي ترتّب في البالطو الأبيض، وفور أن رأوني صاحوا جميعاً في صوت واحد: الدكتورة عوافي، الدكتورة عوافي.

جلستُ خلف السائق وقفل عرفات الباب، وتحرّكت السيارة الميكروباص بنا نحو الشمال، ووقعت عيناي على صورتنا في مرآة السيارة الكبيرة ونحنُ نشبه زهور شجرة السنط الصفراء الكروية التي أزهرت وسط أزواج الأشواك الطويلة، وفوق أغصان وفروع شديدة السواد والخشونة، وفي بيئةٍ شديدة الجفاف والقسوة!

نتاجات المؤسسة

١ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج١.

٢ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٢.

٣ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٥.

٤ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٦.

٥ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٧.

٦ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٨.

٧ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج٩.

٨ـ موسوعة الأخلاق الإلهية، ج١٠.

٩ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج١.

١٠ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج٢.

١١ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج٣.

١٢ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج٤.

١٣ـ موسوعة المواعظ الحسنة، ج٧.

١٤ـ حسن الخلق، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٥ـ الصدق سر السعادة، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٦ـ الكذب مفتاح الخبائث، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٧ـ الشكر حصن النعم، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٨ـ الإنابة إلى الله، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

١٩ـ العلاقات غير المشروعة، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

٢٠ـ حقوق الوالدين بين الحفظ والتضييع، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

٢١ ـ الحياة الدنيا محطة في مسيرة الإنسان، (سلسلة الفضائل والرذائل الأخلاقية).

٢٢ـ موسوعة التراث الأخلاقي، ج١.

٢٣ ـ موسوعة التراث الأخلاقي، ج٢.

٢٤ـ موسوعة التراث الأخلاقي، ج٣.

٢٥ـ مبادئ الأخلاق في القرآن.

٢٦ـ الأخلاق الإسلامية.

٢٧ ـ أسس الأخلاق الإسلامية ومفاهيمها.

٢٨ـ المعجم الأخلاقي.

٢٩ ـ فقه الأخلاق، (مدخل إلى علم الأخلاق الاستنباطي والاجتهادي).

٣٠ ـ بحوث ملتقى الرواية الأول(تأليف مجموعة من الباحثين).

٣١.رسائل من غزة (مجموعة قصص قصيرة).

٣٢ـ بيوت العيوق (رواية).

٣٣ـ سحب القداسة(رواية).

٣٤ـ قرة عين (رواية).

٣٥ـ خير المتاع (رواية).

٣٦ـ مسبحة أمي (رواية).

٣٧ـ ترنيمة طائر الجنة (رواية).

٣٨- الرمق الأخير (رواية).